عبد الرحمن الجامي



رؤية صوفيّة

ترجمتها إلى العربيّة
عائشة عفة زكريّا

٢٠٠٣

دار المنهل للطباعة والنشر - دمشق

عبد الرّحمن الجامي

يوسف وزليخا

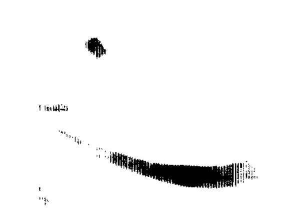
رؤية صوفيّة

ترجمها إلى العربيّة

عائشة عفّة زكريّا

٢٠٠٣

دار المنهل للطّباعة والنّشر ـ دمشق



موافقة وزارة الإعلام
الرقم:٧٤٦٦١
التاريخ:١/٧/٢٠٠٣

مطبعة الصباح
دمشق - هاتف :٢٢٢١٥١٠

الإهداء

إلى حفيديّ ابراهيم وأحمد

التعريف بالكاتب والشاعر

عبد الرحمن الجامي

(٨١٧-٨٩٨ هـ)

(١٤١٤-١٤٩٢م)

هو من مشاهير شعراء القرن التاسع الهجري وكتّابهم في بلاد فارس، واسمه نور الدين عبد الرحمن ابن نظام الدين أحمد ابن شمس الدين الدشتي، نسبة إلى (دشت) محلة في أصفهان، نزح منها جده إلى (جام) فأُسند إليه أمر القضاء والفتوى بها، وهو أيضاً من أولاد الإمام الشيباني صاحب الإمام الأعظم.

ولد شاعرنا في (جام) من أعمال مدينة (هراة) بخراسان في ٢٣ شعبان عام ٨١٧ هـ في أيام السلطان شاه رخ، ملك العراقين (العراق وفارس)، وتخرج في العلوم على يد والده حتى صار أعجوبة زمانه. وقد أقبل على دراسة علوم الدين والتصوف منذ وعى الحياة، لذا اختار صحبة مشايخ الطريق ولازمهم، وهو صغير، منهم مولانا سعد الدين الكاشغري وحصل له أذواق وأحوال بمدة يسيرة فاق بها رفقاءه. كما نال بركة نظر الشيخ محمد بارسا، مريد الشيخ الجليل بهاء الدين شاه النقشبند ومرافقه وخليفته، وكذلك فخر الدين اللورستاني. ولقي بعد ذلك عدداً من المشايخ أهمهم وأشهرهم الشيخ ناصر الدين عبيد الله أحرار ولازمه، وكان يحبه ويرفع من شأنه ويسمع منه شروحاً وافية من الفتوحات المكية، وحين يستشكل عليه شيئ منها يفسرها له، وهو أستاذه في التصوف.

كان جامي يتمتع بشخصية هادئة ونفس شفافة وخيال واسع، ذلك أنه سلك طريق علوم الروح على يد عدد من الشيوخ من مشايخ الطريق النقشبندية حتى صار من كبار مشايخها.[١]

نال شرف مصاهرة الشيخ سعد الدين المذكور بالزواج من ابنته، ورزق منها بأربعة أطفال مات منهم ثلاثة في الطفولة، وبقي رابعهم يوسف ضياء الدين الذي توفي في ريعان الشباب، وكان مثل والده آية في الفضل والذكاء.

شهد له الشيخ عبيد الله أحرار بأنه بحر من نور، ومع ذلك كان لا يقبل المشيخة والمريد لشدة لطفه وشفافية روحه، ويقول: لا أقدر على حمل ثقل المشيخة. ولكن كان له بعض المريدين منهم رضي الدين عبد الغفور اللاري الذي تخرج على يديه في سائر العلوم الظاهرة والباطنة، واشتغل معه في شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر.

حج جامي في عام ٨٧٧هـ فأقبلت عليه ملوك البلاد بالتحف والهدايا حتى قضى تفثه ثم توجه إلى الشام وتلقى الحديث عن المحدّث القاضي محمد الخضيري الذي أجازه بالأسانيد.

كان جامي شديد الحب لشيخه سعد الدين، ولذا بقي ملازماً له يستفيد من بحر علومه الواسعة في مجال الروح، ولما مات اتخذ مسكنه بجانب مقامه ولم يغادره إلا مرتين لتأدية فريضة الحج.

كان جامي موضع تقدير رجال عصره نظراً لورعه وغزارة علمه وكثرة مؤلفاته الشعرية والنثرية على السواء. ومن مأثور أقواله: "الكهولة آخر الشباب، فما صرف به العبد أول شبابه يظهر أثره على وجهه

---

[١] انظر: الموسوعة الصوفية. الدكتور عبد المنعم الحفني. القاهرة: دار الرشاد، ١٩٩٢م. ص ٩٨.

في آخره" . وقد ذكر الشيخ علي بن حسين الصفي الواعظ(٩٠٩هـ=١٥٠٣م) صاحب كتاب رشحات ماء عين الحياة، كثيراً من مناقبه.

عاصر جامي من سلاطين آل تيمور: شاه رخ (٨١٧-٨٥٠هـ)=(١٤١٤ -١٤٤٦م) وميرزا أبا القاسم بابر (٨٥٦-٨٦١هـ)=(١٤٥٢-١٤٥٦م) وميرزا أبا سعيد كوركان (٨٦١-٨٧٣هـ) = (١٤٥٦-١٤٦٨م) والسلطان حسين باي قرا (٨٧٥-٨٩٩هـ) =(١٤٧٠-١٤٩٣م) . وكان يسود البلاد في تلك الحقبة من تاريخها أمن واستقرار يشوبهما من آن لآخر فترات قصيرة من الفتن والاضطرابات، فساعد هذا الاستقرار على رواج العلوم الدينية والعقلية، وانتشرت العقائد الصوفية. وتعمقت الحياة الروحية في النفوس، وصار الكتاب يدعون إلى مكارم الأخلاق، بل كان هذا موضوعهم الرئيس. وقد بالغ تيمورلنك في احترام شيوخ التصوف ورجال الزوايا، لعلو همتهم واتصافهم بالورع والزهد وقوة التأثير في الناس. فكان يذهب إليهم للتبرك بهم ويزور أضرحتهم.

وكان تيمورلنك قد قام بغارات ثلاث على بلاد فارس في الأعوام ١٣٨٠-١٣٨٤-١٣٩٢م. تلك الغارات التي وحد فيها البلاد بالسيف، ثم ما لبثت أن تمزقت بعد ذلك حين مات ابنه شاه رخ عام ١٤٤٦م، بعد أن بذل جهد اليائس في الإبقاء على وحدتها . وبعدها تحولت البلاد إلى دويلات صغيرة وحصل فيها شيئ من الفوضى والحروب الأهلية. وظلت على تلك الحال إلى أن توحدت من جديد على يد الصفويين في بداية القرن السادس عشر للميلاد .

كان العصر الذي عاش فيه جامي غنياً بالإنتاج الفكري رغم ما به من اضطراب. وقد ترك أدباؤه ميراثاً ضخماً قيماً في التاريخ والتصوف والفلسفة والشعر، ما جعله موضع تقدير الحكام ورجال ذلك العصر.

ففي الشعر كتب ثلاثة دواوين من الشعر الوجداني، فاتحة الشباب، واسطة العقد، وخاتمة الحياة.
وله سبع مثنويات أسماها الأكاليل السبعة على السبع الثوابت من مجموعة الصورة السماوية المعروفة بالدب الأكبر. وهي مجموعة متسلسلة من الحكايات التي يتخذها إطاراً لعرض وجهة نظره الفلسفية والدينية والخلقية. وهي على التوالي: سلسلة الذهب: يعالج فيها مسائل فلسفية ودينية وخلقية. سَلَمان وأسال: قصة حب صوفي يصف صراع النفس ضد الهوى وانتصارها. وهي رواية رمزية تناولها قبله ابن سينا وابن طفيل وشرحها الطوسي. تحفة الأحرار: شعر تعليمي ذو صبغة خلقية وفلسفية، كتبها في مدح شيخ الطريقة عبيد الله أحرار. سبحة الأبرار: مثنوية مشابهة لسابقتها في الأسلوب والمضمون، وفيها شيئ من المديح للسلطان حسين باي قرا. يوسف وزليخا. القصة القرآنية المعروفة، موضوع كتابنا هذا، وأول ترجمة تصدر باللغة العربية. ليلى والمجنون. وقد ترجمها إلى العربية الدكتور محمد غنيمي هلال. خردنامهء سكندري. وهي سلسلة محاورات فلسفية بين الإسكندر المقدوني وعلماء الإغريق.

أما مؤلفاته النثرية فهي كثيرة منها على شكل رسائل في تفسير بعض الآيات القرآنية أو شرح لبعض الأحاديث النبوية، وبعضها في العروض والموسيقى. وهناك أربعة كتب هامة هي:

نفحات الأنس: كتاب موسوعي يتضمن سير رجال التصوف مع دراسة شاملة للتصوف وتاريخه، وهو يشبه بذلك كتاب تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار. ولأهميته ترجم إلى عدد من اللغات، منها التركية التي قام بها محمود بن عثمان بن علي اللامعي. وقد اهتم المستشرقون بهذا الكتاب وترجموه إلى لغاتهم، منهم سلفستر دو ساس. وله شواهد النبوة، واللوائح، اللذين ترجمهما المستشرق وينفيلد.

بهارستان: وهو مجموعة حكايات عجيبة وقصص عن الحيوان، هدفها تعليمي ومضمونها صوفي. وفيه خليط من الشعر والنثر على نمط غلستان (بستان الورد) لسعدي الشيرازي.[٢] وقد تناوله بالترجمة عدد من المستشرقين إلى الألمانية والفرنسية.

توفي جامي في ١٧ من محرم سنة ٨٩٨ هـ=١٤٩٢م، ودفن بـ(هراة). وقد أُرِّخ لوفاته بحساب الجُمّل فكان كالتالي: (ومن دخله كان آمناً)[٣].

٩٦ ٦٣٩ ٩٢

التعريف بالكتاب

تناول جامي في هذا الكتاب القصة القرآنية المعروفة في سورة يوسف، وهذه وردت مفصلة في التوراة في سفر التكوين. ونظم الفردوسي يوسف وزليخا في قصة شعرية موزونة على البحر المتقارب نفسه الذي استخدمه في الشاهنامه، كما نظم هذه القصة شعراً عدد من الشعراء منهم:

شهاب الدين عمعق البخاري المتوفى سنة ٥٤٣-٤٤=١١٤٩-٥٠ .

ركن الدين مسعود الهروي، الذي استُشهد في زحف جنكيز خان قبل أن يتمها وذلك في أوائل القرن السابع الهجري. وبعدها قام جامي بنظمها وأهداها إلى السلطان حسين ميرزا حاكم خراسان. ثم

---

[٢]) انظر: القصة في الأدب الفارسي. الدكتور أمين عبد المجيد بدوي. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٨١م. ص ٤١٦.

[٣]) انظر: . عبد المجيد بن محمد الخاني. الكواكب الدرية على الحدائق الوردية. تحقيق عفة زكريا . دمشق: مطبعة الصباح ١٩٩٨م، ص ٢٣٤.

محمود بيك سالم وهو من حاشية الشاه طهماسب الصفوي عام ٩٣٠-٩٨٤هـ = ١٥٢٤-١٥٧٦م. ثم فرخ حسين ناظم الهروي الذي بدأها سنة ١٠٥٨ وأتمها في ١٠٧٢هـ = ١٦٤٨-١٦٦١م. وبعده الهروي لطف علي بيك آذر عام ١١٧٦هـ =١٧٦٢م. وكذلك الشاعر شوكت حاكم شيراز من قبل الشاه فتح علي. وقد ذكر الفردوسي في منظومته الشعرية ليوسف وزليخا أنه لم يكن أول ناظم في موضوعها فقبله هناك أبو المؤيد البلخي وكذلك البختياري سبقاه إلى نظمها . لكن يبدو أن هاتين المنظومتين فُقدتا فلم يصلنا منهما شيئ.

أضفى جامي على قصة يوسف وزليخا لوناً صوفياً وخيالاً عرفانياً فبدت وكأنها قصة جديدة. وقد وردت القصة في ثمانية وخمسين فصلاً اضطررنا إلى الالتزام بترتيب عدد هذه الفصول على كثرتها وقصِرها، بالإضافة إلى أن هذه الترجمة نثرية ولا بد أنها تفقد بذلك كثيراً من رونقها ونفحتها الشاعرية. ومن الملاحظ أن جامي بدأ قصته المنظومة من حيث بدئت في سورة يوسف وتمشى مع سياقها . لكنه أضاف أموراً كثيرة إليها، منها قصة الفتاة (بازغة)، ومنها توسعه في قصة زليخا التي لم يرد اسمها أصلاً في القرآن الكريم ولا حتى في التوراة. كما أضاف قصة الصور على جدران بيت زليخا، وزواج يوسف من زليخا ثم وفاته وبعدها موت زليخا .

ومع ذلك فإن جامي لم يلتزم بكل ما جاء في سورة يوسف، إذ لم يذكر في قصته كيف اجتمع يوسف عليه السلام بإخوته وعرفهم حين صار عزيز مصر، وكيف تحقق حلمه حين رفع أبويه على العرش وخروا له سجداً، مع أن هذه الحادثة هامة جداً في القصة، وتشكل نقطة تحوّل كبيرة في حياة سيدنا يوسف عليه السلام والتي أبرزت ازدياد إيمانه وتضرعه لخالقه :كما ورد في القرآن الكريم: ﴿رب قد آتيتني من

الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ .

على أن براعة جامي كانت واضحة في عاطفته الصادقة وخياله الواسع وبيانه الساحر وقدرته على تصوير كثير من النوازع البشرية وحقائق الحياة في النهاية التي انتهت بها القصة التي تثير الدموع من العيون. وفي حقيقة الأمر، فإن جامي وهو أحد مشايخ الطريق الكبار، يعطي دروساً في العشق الصوفي المتجرد لله سبحانه، عن طريق شخصياته، وهذا ما اتجه إليه جميع الشعراء الفرس وكتابهم من أمثال الشيخ جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار النيسابوري ونظامي الكنجوي وغيرهم كثير، لأن التصوف مبني على العشق أولاً وأخيراً. والفضل لجامي في صبغ الموضوع بصبغة جديدة، وقد ظهر فيه طابعه الشخصي، وكان فيه مجدداً أكثر منه مقلداً. إذ أنه مفكر يحاول أن ينفذ من وراء الحوادث، فبازغة وزليخا وجدتا في الحب الإنساني طريقاً إلى العشق الإلهي، حين يشتد الوله بالحب فيتخذ من محبوبه رمزاً لغاية عظمى للهيام بالجمال الأزلي.

تشكل الأحلام حيزاً كبيراً في قصة جامي، فمن حلم يوسف، وهو صغير إلى حلم زليخا الشابة بيوسف وجنونها، إلى صاحبي السجن الذين رأيا حلمين مختلفين أوّلهما لهما يوسف عليه السلام، ثم حلم ملك مصر واستغرابه لمعرفة معنى رؤياه. وهذا كله ما يدل على اهتمام الناس بالرؤيا الصالحة منذ قديم الزمان. وقد أورد القرآن الكريم ذكر هذه الرؤى في قوله تعالى، وقد منّ على يوسف عليه السلام: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ يعني به علم الرؤيا، وهو العلم الأول منذ ابتداء العالم، لم يزل عليه الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، يأخذون به ويعملون عليه حتى نبوءاتهم

بالرؤيا وحي من الله عز وجل إليهم في المنام. وقال تعالى: ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال بعض المفسرين: يعني الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو تُرى له في الدنيا، وفي الآخرة رؤية الله تعالى. وقال رسول الله ﷺ[من لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر]. وقالت عائشة، رضي الله عنها: "أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح".[٤]

بلغ الشاعر جامي قمة التصوير الفني في منظومته القصصية هذه لشخصيتيه، لكننا يمكن أن نصرح:

"أنهما بعدتا قليلاً عما نعرفه من القرآن الكريم، بل وضحت صبغتهما الصوفية. إذ أن يوسف يعتقد، كما يعتقد سائر المتصوفة، أن التأمل في الجمال يقود إلى الله سبحانه ذي الجمال المطلق. فهو ينصح الأميرة المصرية بازغة، حين أتت إليه مدلهة بحبه، قائلاً: "إن الجمال في الخلق ما هو إلا انعكاس عابر لا يطول بقاؤه، كنضارة الورد. فإذا أردت الخلود فتوجهي إلى أصل الأشياء!". وقد ترهبنت الفتاة على أثر سماعها هذا الكلام وزهدت في خير الدنيا. بينما كانت زليخا في بداية أمرها لا تدرك ما أدركته بازغة لأنها كانت عبدة للمظاهر.

وزليخا ترى في حلمها يوسف عليه السلام، قبل أن تعرفه ويبدو لها في حلمها أنه سيكون زوجها المقبل. ثم تعرفه بعد ذلك وهو أمين مخازن الملك، وكانت مقيمة على حبها لفتى حلمها. وستظل عذراء مع زوجها طوال حياته . . . وتستمر العاطفة قوية لديها حتى تستهلكها وتضيع حياتها في

[٤]) انظر: تعطير الأنام في تعبير المنام. الشيخ عبد الغني النابلسي. القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٨٤هـ. ص ٣.

الصبر والانتظار، كما تبقى ليوسف عليه السلام نظراته الصوفية، حتى يسلّم بتوله زليخا به، وأنها – وقد هرمت وعميت – تقيم في كوخ من اليراع تكتفي بسماع وقع سنابك موكب يوسف عليه السلام على الطريق، فيدعو الله لها أن يرد شبابها وبصرها. ويستجيب المولى له، ثم لا يلبث بعد زواجه منها أن يمل نعيم هذه الدنيا، فيسأل الله العلي أن يعجّل برحيله إلى دار النعيم، فتموت زليخا حزناً عقب وفاته". [٥]

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن شاعرنا لم يكن من زهاد التكايا والخوانق، بل واضح أنه خاض معترك الحياة من وصفه لحياة الناس المترفة والزخارف والجواهر والحلي والحلل، وحياة القصور وتنسيق الحدائق، والعلاقات العاطفية بين الناس عن طرق مربية زليخا، أو والدها أو وصيفات زليخا، أو في وصفه لجمال زليخا الأخاذ وفتنة يوسف عليه السلام وسحره كالشمع الذي يذيب القلوب. والحوار الغزلي الذي دار بين البطلين كان مشوباً بكثير من التحليل النفسي، وكذلك فنون الإغراء الجنسي التي قامت بها وصيفات زليخا، والصمود العجيب الذي بدا من يوسف عليه السلام أمام كل هذا السلوك الذي سجله الشاعر، وكبحه لأي نزعة تحيد به عن مسلك الأنبياء. وكلنا يعلم أن المتصوفة قام مذهبهم على كبح جماح النفس الأمارة بالسوء، وتحدثوا عن النفس اللوامة والنفس الملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية، وأخيراً النفس الكاملة، وهي التي يتطلعون دائماً إلى أن يرتقوا إليها لأن صاحبها كمن يملك مرآة تعكس النور الإلهي في قلبه.

وهذه القصة تعكس حضارة تلك الأيام وفكر أهلها وسلوكهم وتطلعهم في النهاية إلى ما هو أسمى من كل هذا، الجمال الإلهي الذي ما بعده من جمال!

---

٥) انظر: الأدب المقارن. الدكتور محمد غنيمي هلال. القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٧٧م. ص ٣٠٢.

إن هذه القصة ملحمة عاطفية تدور داخل النفس وعبرة وعظة لكل بصير! ويجدر بنا أن نختم قولنا بأن من كتب هذه القصة هو أحد العشاق الكبار، ولا يعرف الصبابة إلا من يعانيها. لذلك جاءت صادقة مؤثرة فقد كُتبت بدماء القلب!





خارطة امبراطورية
تيمورلنك
وموقع مدينة جام

بسم الله الرحمن الرحيم

إلهي دع برعم الأمل يتفتح من حدائق الأبدية لكي يبارك حديقتي بابتسامة عذبة ويرسل عبر شذاها عَرْفَهُ إلى أن تطرب وتنتشي.

وفي مقام انكساري المستمر دعني أتذكر أنعامك الجلى التي أدمتها عليّ حتى تصير كل خطرة في قلبي شكراً وامتناناً لك، وكل حركة من لساني لا تكون إلا تسبيحاً بحمدك.

لقد جعلتَ قلبي خزانةً لجواهر الكلام لكي ينطق بها لساني، فافتح قربة مسك عبقريتي وانشر عبيرها من الشرق إلى الغرب. وامنح نايي الذي يكتب هذه القصة حلاوةَ السكر! وضمّخ بالعنبر هذا الكتاب الذي أبدأ به الآن! وهذا الموضوع يجب أن يصل إلى تمامه فإذا فُصل عن عنوانه لا يبقى لنا شيء من هذه القصة. وهنا في هذه الحانة حيث نسمع عدداً من القصص الجميل مغنىً، لم أكن قادراً على الإصغاء إلى شيئ منه لأن أصداء هذه الأنشودة تتردد على سمعي وتتملكني. لقد ثمل كثير من أصدقائي بعد أن شربوا كفايتهم وانصرفوا، دون أن يتركوا شيئاً وراءهم سوى كووسهم الفارغة، ولم أجد أحداً منهم جديراً بالاحتفال بهذا الشراب الصرف فيمسك بكأس هذه الخمرة في يده. إنهم لم يدعوا لنا إناءً ولا كأساً ولا ساقياً، أجل لم يبق لنا الآن سوى غصص الألم[٦]. ولكن تشجع يا جامي! ليكن انتشاؤك مختلفاً! سواء كنت تحتسي المسكر أو الخمر الصراح، هيّا قدم شرابك...!

---

[٦] واضح أن الشاعر يشبه أقاصيص العشق بالخمرة في الكأس التي ثمل منها أصحابه واكتفوا، بينما هو يملك كأساً فيها شراب صرف ليس جديراً إلا بمن يعرف قيمتها، فبقي وحده متألماً. ولا شك أن القرآن الكريم ذكر الكأس والشراب الروحي في الجنة، وأية كأس وأي شراب!

ما أقدر الخالق العظيم الأبدي أحكم الحاكمين على أن يهب الضعفاء قوة، وهم لا يملكون من دونها لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ! إنه المعين وإنه موصل المرء إلى ما يصبو إليه، وهو الخافض الرافع، والغفور أيضاً لكل من تاب حين بلغ من الكبر عتياً بعد أن أمضى حياته في النفاق، وصار منتشياً بكأس حبه. إنه مع هؤلاء الذين يكدحون طيلة نهارهم وليلهم. ما أجمل طعم الشكر في فم هؤلاء الذين يسبحون بحمده! نحن لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، إنه هو واهب الوجود والعدم.إنه لا شبيه له ولا مكان ولا زمان. إنه موجود بكل مكان، تقف العقول حائرة عن إدراك كنهه.

يا نفسي اللعوب حتامَ تبقين تلعبين بالطين في مقرّ المظاهر التي لا طائل وراءها ؟ أنت الورقاء ذات المنشأ الرفيع[٧]، درجتِ في عشٍ غير عشٍ هذا العالم الوضيع، فلماذا هجرت بيتك لتصبحي هكذا كبومة وضيعة تساكن الخرائب؟

حتامَ تسلمين هذه المملكة إلى الشكوك، وتقولين كما قال أبوك إبراهيم الخليل، حينما رأى أول ما رأى كل نجمة جديدة ﴿هذا ربي﴾ ؟ بل كوني مثله حين قرع باب اليقين وقال: ﴿لا أحب الآفلين﴾ دعي عنك الضلال والشك وامحيه من قلبك وأديري وجهك إلى الواحد الأحد !

إن في كل ذرة من ذرات الكون طريقاً تقود إليه وبرهان على وجوده. وإذا كان هناك من فكرة محفورة في القلب عن أي وجود محسوس فلأن كل صورة لابد لها من مصور، ومن الفعل تتعرف إلى

---

[٧]) إشارة إلى بيت ابن سينا من قصيدة الورقاء:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

الفاعل. وفي اللحظة الأخيرة التي لا مفر لكَ منها، وأنت وحيد على فراش الموت توشك أن تلفظ فيها النفس الأخير فإن مصيرك بيديه وحده سبحانه. لذا اجعله دائماً ملاذك الوحيد، واطلب منه جنة الخلد جزاءً وثواباً على كدحك إليه. إلهي سبحانك! لقد كنا في غفلة عن كلا الوجود والعدم المخيف. فخلقتنا لنجتاز مرحلة العدم إلى الوجود ثم سجنتنا في قفص الطين، ثم نقلتنا من الضعف إلى القوة. وأخيراً أنقذتنا من الجهل ومنحت نفوسنا المعرفة.

لم نكن نميز الخير من الشر لأننا نتعرض للذنب مرة من خلال إسرافنا ومرة من خلال تقصيرنا. لم نمشِ على السبيل التي أوصيتنا باتباعها، بل سلكنا سبيل المحرمات. ومع ذلك لم تسحب عنا فضلك ومعروفك ولم تحجب عنا نور هدايتك. ولكن ما جدوى ذلك إذا كنا لا نقوم بأدنى جهد من جانبنا لكي تنالنا هذه الرحمة؟

إننا لنصرخ من شدة اليأس والقنوط بعد أن استسلمنا للكسل. فامنحنا يا إلهي الإرادة القوية والعزيمة الصادقة لكي نجتهد في طاعتك!

إننا لا نميّز الحكمة من التذلل والتضرع إليك كالجهلاء. فما الفرق إذاً بين الحكمة والجهل؟

إلهي! لا تدع نزعات الطمع تقودنا إلى الضلال وتحيد بنا عن طريق الفضيلة الحقة! إلهي هذه آهات عجزنا، فاهدنا سبيل الرشاد وظللنا برحمتك ونادنا إليك وقُدنا إلى الإيمان! ياكريم العفو أرجو أن تقبل طاعتي وركوعي وسجودي! وهذا هو منتهى ما أصبو إليه من شرف. ولو كانت خطاياي كثيرة فإن كرمك أكثر من ذلك بكثير، إنه أضعاف وألوف الرحمات والمغفرة. ولئن كانت ذنوبي متراكمة كحزم

لا تعد ولا تحصى، فإنك قادر على إحراقها جميعاً بحرارة تأوهاتي، ولو استغرقت مئات من السجلات لكي أدون فيها عصياني وإسرافي في أمري فإنك على محوها كلها بدموع عيني لقدير.

كيف يعبّر المرء كادحاً في طريق الروح إذا لم يجد في هذا الكدح شفاءً لآلامه. فليكن يا إلهي شفاء (جامي) الألم نفسه، واجعل دواءَ قلبه دوامَ احتمال الآلام في سبيلك!

٢- إضاءة شموع الجمال من عالم الغيب إلى روض عالم الشهادة

كل كائن في هذا الكون ازدان بالجمال فهو والعشق معاً كطائر انطلق من عش الوحدة وحط على غصن مظاهر الكثرة والتعدد. ومن هنا كانت هيبة تألّق المعشوق، ومن هنا كذلك كان نواح العاشقين الحزين على فراق الحبيب. فإن يكن ثمة ترنيمة فرح لمعشوق فهو من هنالك، وإن يكن أنين عشق لعاشق فمن هنالك أيضاً، وحين كان الكون يقبع مخبوءاً في العدم، كان هناك كائن محروم من الاستمرار، حيث كلمتي أنا وأنت ليس لهما معنى. جمال مطلق متحرر من أي قيد من قيود المظاهر، يتبدى لنفسه فقط متميزاً بنوره الخاص، وكعروس جميلة في غرفة الفرح، ثوبها كامل لا يعيبه أبسط نوع من النقصان، ولم تعكس أية مرآة وجهها أبداً، ولم ترها عين، ولا حتى في الخيال، غنى لنفسه أغنيات رائعة عن جمال يأخذ بمجامع القلوب ولعب لعبة الحب لنفسه.

ولكن مبدأ الجمال هو أن الوجه الجميل لا يحتمل أن يبقى مخبوءاً خلف ستار، إنه غير قادر على الاعتدال، وإذا أغلقت الباب دونه فإنه سوف يتبدى من النافذة. وكما تعلم أنه إذا كانت هناك فكرة رائعة ونادرة تلوح في الفكر، فإنك تصبح مبهوراً بها وتحس أن عليك إظهارها بأن تعبر عنها بالكلام أو الكتابة. ومثل هذا كان الدافع الطبيعي لظهور الجمال منذ نشأ أول مرة فيما قبل فترة الظهور. ولما

أحس الجمال السرمدي بهذا الدافع برز من ممالك القدس ليشع في جميع الآفاق وفي جميع الأرواح. وحينما ظهر انعكاسه كان الحديث عنه على كل شفة ولسان. وحين انطلق منه شعاع ضئيل ملأ السماء والأرض بالضياء انبهرت منه الملائكة، فبدأت تتلو تسابيحها إلى درجة وصلت بها إلى الذهول. ومن الغائصين في البحار السماوية ارتفعت تسبيحة صارخة "سبحان الله!"

وهنا صارت كل ذرة من ذرات الكون مرايا، كل واحدة منها تعكس مظهراً من هذا الجمال الخالد والروعة الأبدية. وحين وقع جزء من هذا السطوع على الوردة جعل العندليب هائماً مجنوناً بها، وأما عطرها فقد ألهب خدّ المصباح، وتراكضت مئات من الفراشات قادمات من كل حدب وصوب وأحرقت أنفسها فيه. وجعل الشمس تتقد باللهب، وترك زنابق الماء تلوح للعيان مشرئبة الأعناق. وصارت ليلى مدينة له بفتنتها وجمالها، حتى إن قلب المجنون هاجه الهوى مع كل شعرة من رأسها، ومنح العذوبة لشَفَتَيْ (شيرين)[٨] اللتين أبهجتها كلاً من برويز وفرهاد[٩]. ومن خلال يوسف، قمر كنعان، قهر الجمالُ زليخا وسيطر على روحها وغلبها على أمرها.

هذا هو الجمال الذي نرى روعته في كل مكان، وبسببه احتجب المحبوبون عن العيون، فحيثما رأيت حجاباً، فوراءه يختفي ما هو مخفي. وهذا ما سبب كل قلب مكبل بالعشق أن يخفق. إنه حب الجمال الذي يسرّع ضربات القلب ويملأ الروح نشوةً وطرباً. وكل قلب عاشق، هو عاشق للجمال وحده، سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه.

---

[٨]) شيرين: من شخصيات الحب في الأدب الفارسي

[٩]) برويز وفرهاد: هما اللذان أحبا شيرين.

فلا تحاول أن تقع في خطأ فاحش من التصور بأن الجمال ينبعث من هناك وأن الحب متأصل هنا في نفوسنا، مع أن الحب والجمال ليسا في مرتبة عليا واحدة، فإذا ظهر العشق في داخلك فلأن له أصولاً في الجمال هناك. فأنت لاشيء، ولا تعدو كونك مرآة انعكس عليها الجمال. فالجمال وانعكاسه جاءا معاً من ينبوع واحد، إنهما معاً الكنز والصندوق.

ولكننا، أنت وأنا، ليس لنا مهمة هنا، لأننا لا نملك سوى فكرة مفترضة. فلنصمت، مادامت القصة ليس لها نهاية، فليس ثمة لغة أو شاعر يستطيع التعبير عنها، وليس لنا بد من أن نكون ملتزمين بالعشق. فمن غيره نحن لاشيء، أجل، لاشيء على الإطلاق!

حوّل وجهك عن العالم إلى ألم العشق، فإن عالم العشق جميل! لا أنقص الله غم العشق من قلب إنسان! ولا كان في العالم قلب بغير عشق!

إن القلب الخليّ من مرض العشق ليس قلباً أبداً، والجسم المحروم من وخزات العشق ليس إلاّ مجرد ماء وطين، فالتفت عن هذا العالم إلى ميدان آلام العشق اللذيذة، ولا تدع قلبك يهرب من هذا العذاب! كن أسير العشق تكن طليقاً! وضع آلامه في صدرك تكن مسروراً! فما دوران هذا الفلك إلا من دُوار العشق، وكيف يتأتى الجيشان العظيم للعالم إذا لم يكن هناك ضجيج عشق؟!

نعم! إذا كنت تريد أن تكون حراً، فكن أسيراً للعشق. وإذا رغبت في المسرات فافتح صدرك لمعاناته. فمن خمرة العشق تأتي الحرارة والبهجة، ومن دونها لا شيء غير الكآبة والأنانية الباردة. إن مجرد تذكر العشق يحيي قلب العاشق ويأتيه المجد الذي يرفع شأنه. فلو لم يرتشف المجنون خمرة من هذه الكأس، فمن أين له تلك الشهرة في الدنيا وفي الآخرة؟ هناك ألوف من الرجال عاشوا موهوبين، ولكنهم

كانوا غرباء عن العشق، وقد انتهوا دون أن يتركوا وراءهم أية قصة أو أثر يخلدان أسماءهم. وقد تحاول القيام بمئات من الأمور الكثيرة، ولكن العشق وحده هو الذي يحررك من نفسك. ولذا لا تهرب أبداً من العشق- نعم ولا حتى من عشق متستر بصفة أرضية- لأنه إعداد لفهم الحقيقة العليا. فكيف تستطيع أن تقرأ القرآن دون أن تتعلم الأبجدية أولاً؟

لقد سمعت حكاية عن مريد ذهب إلى شيخ يسأله الهداية إلى الطريق (الصوفية). فقال له الشيخ: "إذا لم تكن قد مشيت في طريق العشق فاذهب وأحب واعشق، ثم عد إلينا بعد ذلك!".

فإذا لم تعبّ من قدح خمر الظهور فلن تذوق طعم شفةٍ من شراب الأسرار. فلا تتسكع في مقام المظاهر، بل اقطع الجسر بسرعة إذا أردت أن تصل إلى الهدف الأسمى!

وإني لأشكر الله أنه من اللحظة التي جئتُ فيها إلى هذا العالم قد كنت دائماً سعيداً باتباع طريق العشق. فحينما ولدتُ وضعت أمي شفتي على صدرها وأرضعتني على العشق، مع حليبها. والآن وقد ابيضّ شعري وحال إلى لون هذا الحليب مازلت أحتفظ في أعماق قلبي بالطعم اللذيذ لحليب العشق. لا شيء يمكن أن يقارن بالعشق سواء في الشيخوخة أو الشباب. وكل لحظة عشق تتوسل إليّ قائلة: "يا جامي، لقد غدوت مسناً في العشق وربما تستمر فيه ثم تموت بهدوء في عشقك، فلا بد لك من أن تكتب أولاً رواية عن تجربة العشق، حتى تثبت لنفسك قدماً في هذا العالم. فارسم بقلمك الظريف صورة تبقى من بعدك حينما تغادر الحياة".

لقد رحبتُ بتحدي الحب لذكائي بكل سرور. وعلى الفور بادرت بالمراهنة وبدأت بصياغة جديدة لهذا القصة القديمة الرائعة. متمنياً عون الله في أن تحمل نخلتي ثمار الحقيقة، التي أستلهمها من

حُرَق العشق التي نزلت بي. وسوف أبدع عملاً شعرياً أرجو به أن يلهب خيال المدركين للحقائق بظرفه ومهارته، حتى يتصاعد منهم دخان الحريق ويغزو القبة الزرقاء ويُبكي عيون النجوم، وبذلك أكون قد أنجزت عملاً كتابياً معتبراً، فيصفق لي الجميع، حتى السموات نفسها، إعجاباً بعملي هذا.

حينما أدركت أن في الكلام قوة إلهية، كيف لي أن أمتنع عن استخدامه؟ لقد تقدم بي العمر وأنا مشغل نفسي بهذه الخمرة، والآن سوف أجعلها شغلي الشاغل لكي أهز بعنف شيخوختي، وأنفّس عن بعض الأسرار التي كانت مخبوءة داخل قلبي. سوف يكون فمي مملوءاً بكلمات مبدعة في حلاوة العسل، حينما أكتب عن جمال يوسف وحب زليخا. لقد قال تعالى في كتابة العزيز: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ولم يكن في الوجود معشوق مثل يوسف الذي فاق جماله جمال الآخرين. وعندما نريد وصف شاب جميل له صفات مميزة فإننا نقول عنه يوسف آخر. ومن بين العشاق لم يوجد أحد مثل زليخا، التي كانت عاطفتها الحارة فريدة من نوعها. فلقد عشقتْ منذ طفولتها حتى كبرت سنها، أحبت في كامل سطوتها وفي فقرها المدقع. ولم تتوقف لحظة واحدة عن تكريس نفسها للعشق. لقد ولدت وعاشت وماتت- في العشق!

٣- المجيئ بغصن جمال يوسف من مرتبع الغيب إلى روض الشهادة وتربيته بماء عين يعقوب وهوى قلب زليخا

حسب رواية الرواة عن أصل الكون، حدثنا أصحاب الكشف الإلهي الذين يفكرون ملياً ويستخرجون اللآلئ من محيطات المعاني الروحية، بأن عيني آدم عليه السلام قد تفتحتا على ضوء شمع جمال

يوسف في خلوة الغيب، وشاء المولى القدير أن يريه ذريته أمام عينيه، وكانوا مرتبين حسب مزاياهم، الأنبياء فالأولياء فالملوك ثم الناس العاديون.

وألقى آدم ﷺ ببصره على هذا العدد الكبير وتفحّص كل مجموعة من هؤلاء الناس، واحدة تلو الأخرى. ولم يمض وقت طويل حتى لفت انتباهه وجه يوسف متبدياً كالقمر– ماذا أقول؟– بل مثل الشمس في علوها وهيبتها وروعتها . لقد برز من بين هذا الحشد الهائل شمع منير، حتى غطى جماله على جمال الآخرين فتضاءلوا وخبا نورهم كما يخبو نور النجوم أمام الشمس المشرقة.

ولما أخذ العَجَبُ آدم ﷺ من هذا البهاء سأل ربه: يا إلهي في أية حديقة ورد ظهرت هذه الشجرة؟ وأية عينين ملتمعتين سوف يسمح لهما بالتحديق فيه؟ وكيف يتأتى لهما أن يتمتعا بهذا الحظ السعيد ؟ ومن أين جاء مثل هذا الجمال وهذا الجلال؟ فسمع هاتفاً يقول: "إنه نور عينيك، وسوف يحقق السعادة لقلبك الحزين. إنه فرع من حديقة يعقوب ﷺوغزال في بستان إبراهيم الخليل ﷺ . إن جمال وجهه سوف يثير غيرة من وهبوا الحُسن والجمال ويعتبر مرآة وجهك، فكافئه بشيء من خزانة ثروتك!" .

فأجاب آدم ﷺ "نعم، لقد فتحتُ له أبواب الكرم، ومنحته ثلثي الجمال المقدر لبني الإنسان.

وبعدها تفتح قلب آدم ﷺ بالسرور كما تتفتح الوردة، ثم صار يدعو لحفيده دعوات صادقة بأن يبارك الله ﷻ فيه، فكان كالعندليب الذي يغرد للوردة.

ودق طبل الوجود على يد هذه المجموعة الكبيرة المكرسة لعبادة المظاهر، وكشفت الحقيقة لبني الإنسان في كل حقبة، ونشر رجل عظيم نوره على هذا العالم. ولو أن النمط الكوني بقي ثابتاً على حاله،

فإن كثيراً من الأسرار الجيدة قد تبقى مخبوءة. ولو لم تختف الشمس من نافذة السماء لما رأينا جمال شعاع النجوم ساطعاً. ولو لم يتلف الشتاء الحقول الخضراء، لما جلب الربيع الابتسامة على شفاه الزهور.

عندما غادر آدم عليه السلام الأرض مقر مصلاه، أخذ مكانه ابنه شيث عليه السلام وعندما مات جاء بعده إدريس عليه السلام لكي يفشي الحقائق المقدسة في دار الدنيا الخداعة، ولما انتقل إدريس عليه السلام إلى الرفيق الأعلى جاء دور نوح عليه السلام لكي يتابع نشر دين الله ويحميه من الكفرة. وبعد أن غرق نوح عليه السلام في طوفان الموت ورث مكانه إبراهيم الخليل عليه السلام . ومنه انتقلت المرتبة إلى إسحق عليه السلام . ولما وُرِيَ الثرى، ورثه يعقوب عليه السلام الذي شع الهداية على الناس من مكانته العالية وتحدى الإنسانية الضالة.

ورفرفت رايات يعقوب عليه السلام امتداداً من حدود سورية حتى أرض كنعان، وهناك بنى بيته، وكبرت أسرته وزادت ممتلكاته، وصار قطيعه يفوق النمل والجراد عدداً.

وإلى جانب يوسف كان له أحد عشر ابناً، ولكن يوسف وحده هو الذي ملك عليه قلبه. وحينما فُطم عن صدر أمه صار يزداد شبهاً بالقمر في علو السماوات، كان فرعاً متأصلاً وسليل غصن مزدهر من حديقة القلب، وهلالاً يجول في سماء الروح. كان وردة متفتحة في حديقة إبراهيم عليه السلام بل ربما كان برعماً مطوياً بقوة في ثوبه. فكان الجرح والبلسم الشافي لقلب والده في آن واحد. كانت أمه ترطب شفتيه الصغيرتين بحليبها مادامت حية، ولكنها لم تضمه إلى صدرها أكثر من سنتين، وبعدها أُترعت كأس الموت السامة وتركت طفلها شبيه اللؤلؤة الثمينة في بحر الكرم، يتيماً باكياً وحيداً.

ولدى حزن الأب لحالة لؤلؤته هذه، ابنه الوحيد، أمّن له حماية جديدة من حضن أخته. هذه العمة الطيبة اهتمت بهذا الطائر الصغير ورعته وغذته، فنما سعيداً بالعافية والقوة، وتعلم المشي

والكلام بكل رعاية وجمال. وصارت عمته متعلقة به إلى درجة أنها لم تكن تبتعد عنه أبداً. ففي الليل تضمه إلى جانبها لينام كجزء من روحها، وفي أثناء النهار كان كالشمس التي تضيء أمام عينيها.

وأما أبوه فكان أيضا شديد الرغبة لرؤيته، وكان يود أن يبقيه إلى جانبه، ليكون على مرأى منه. ولذا أرسل إلى أخته يقول: دعي يوسف يَعُدْ إلى بيت أبيه. فتظاهرت بأنها مطيعة لأمر أخيها يعقوب ، ولكنها كانت في دخيلة نفسها تريد الاحتفاظ بهذا الولد المحبوب فأضمرت لذلك أمرا خططته في سرها.

وكانت قد ورثت من أبيها إسحق حزاماً، يعتبر في الأسرة من الأشياء المتوارثة التي فيها بركة معيّنة في طريق الحق يقيه من كل سوء، وكل من لبس هذا الحزام فإنه محمي من أي خطر. وقبل أن يغادر الطفل يوسف منزلها بوقت قصير قامت بإلباسه هذا الحزام في وسطه. ولما كان بصدد الذهاب بدأت تبكي وتصرخ بأن الحزام قد سُرق. وعلى كل فرد أن يخضع للتفتيش بدوره، ولما وصل البحث إلى يوسف، إذا بها بكل خفة تفك الحزام المسروق من وسطه لتريه لمن حولها. والآن وحسب قانون المخلصين في تلك الأيام، إذا قام أحد بأخذ شيء من إنسان آخر بقصد السرقة وقُبض عليه وهو معه، فإنه يصبح عبداً لصاحب الحاجة المسروقة. وهكذا وبفعل هذه الخطة الخادعة، بقي يوسف محافظاً عليه عند عمته. فعادت به إلى البيت، والتمعت عيناها فرحاً، وهي تملأ منه ناظريها.

وبعد فترة من الزمن ماتت العمة، واستطاع يعقوب أخيراً أن يمتع عينيه برؤية ابنه المفضل، فكان يوسف قرة العين والنور لعيني أبيه.

أستطيع الآن أن أصف سحر يوسف وفتنته وجماله الذي غدا يفوق جمال الحوريات. لقد كان قمراً في سماوات المجد، يشع فيها من الداخل والخارج.

قمر؟ لا، إنه شمس مشعة! بل إن الشمس نفسها ما هي إلا سراب من ينبوع البهاء الأبدي هذا، إنه شعاع مقدس صاف فوق حدود التساؤلات: كيف ولماذا؟

ولما أراد ذو المشيئة المُطلقة أن يتجلى بمظهر الجمال، كان تجليه بمظهر يوسف.

وحافظ يعقوب عليه السلام على هذه الشمس في قلبه وجعل لها مكاناً في أعماق روحه. وعلى كل حال، كانت زليخا الجميلة تعيش مختفية وراء حجب العفة، في بلاد الهمجية البعيدة، قبل أن يحصل لها ما حصل حين رأت لمحة من جمال يوسف المشع، فاستعبدتها صورته التي رأتها في الحلم. إنه لمن المدهش حقا أن يُستشعَر الحب من الأبعدين في الوقت الذي كان يجب أن يُستشعَر من قبل الأقربين!

٤- زليخا، نسبها، وصفها، رؤياها لشمس جمال يوسف عليه السلام، تغير حالها، تعجب الجواري من ذلك

بكلمات موزونة بجواهر بلاغة الكلام، يحدثنا الراوي أنه في ذلك الزمان، وفي الغرب من بلاد عاش حاكم قوي اسمه طيموس، ملكاً على مملكة آمنة مزدهرة بين أسباب الملك ومنى القلب. نطق الفلك في الجوزاء لخدمته واستحكم رباط الظفر بسيفه، وكان له ابنة جميلة يحبها حباً جماً تدعى زليخا، وكانت أثيرة لديه أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم. لم تكن ابنة ملك فحسب بل هي كوكب من البرج السلطاني، وأكثر جواهره أسراً بين كنوزه. ومن المستحيل أن يتسع البيان للحديث عن جمالها،

ولا الكتابة عنه، فلأروّض الطبع بخيالها وأستمد من لعل[10] شفتيها الحلوتين دافعاً لقول كل ما يستوعبه وصفها، وأجول ببصري من فرقها إلى قدمها كشعرها المسترسل، وأغذي القلب بصورة وجهها . وما الذي أستطيع أن أقوله في وصف الذهب والجوهر أكثر من أنهما ذهب وجوهر ؟

كانت زليخا تعيش عيشة رخية، تستلقي أحياناً من دون مبالاة على وسائد أنيقة من حرير صيني مطرز بالفضة والذهب. وأحيانا ترتدي ثوباً مطرزاً بالذهب السوري، وآونة تمشي الهوينى بلباقة في ردهات القصر. ويراها الصباح في ثوب جديد كل يوم، ولا ترتدي غطاء رأسها مرتين، فتبدو كالقمر كل يوم في طور. ولم يكن مسموحاً حتى لعظماء هذا العالم أن يقبلوا قدمها -ولكن هذا الشرف كان مخصصاً بصورة ممتازة لطرف ثوبها، وثوب نومها هو الذي يتمتع وحده بمزية ضم جسدها في عناق. وكان كل من حولها من ذوات الوجوه الجميلة الباسمة والأجساد النحيلة المنتصبة كشجر السرو من أتراب لها بوجوههن الملائكية يقفن ليل ونهار من أجل خدمتها وحدها .

ولم يتعرض قلبها أبداً لأي نوع من الحزن، ولو لأسف بسيط، ولم تجرح قدمها أو تخدشها شوكة ،لم تعرف العشق ولم تكن معشوقة لأحد .

كانت كأنها غافلة عن مثل هذه العاطفة. ففي الليل تستغرق في النوم مثل نرجسة سابحة في الماء، وفي الصباح تفتح عينيها كوردة باسمة، وتلعب بلعبها الحلوة في باحة قصرها، ممضية أيامها في اللهو واللعب والضحك ،غير عابئة بما تخبئه لها الأقدار من صروف. وهكذا عاشت حياتها في سعادة

---

[10]) اللعل: ورد أحمر قان.

وصفاء بقلب خال دون أن تتساءل ماذا ستجلب لها أيامها القادمة، أو ما هو منتظر من الليالي من أحداث!

٥- رؤيا زليخا لأول مرة شمس جمال يوسف عليه السلام في غمد المنام وقتلها بذلك السيف المغمد في جرابه

وفي إحدى الليالي الجميلة جمال فجر الحياة المفعم بتسارع أيام الشباب، وفي ذلك القصر الصاخب أقبلت زليخا تسحب قدميها تحت حافة ثوبها، زاخمة بالشباب فلم يتحرك حولها شيء سوى أن النجوم فتحت عيونها عليها. وسرق الليل حراس الحواس، مثل اللص، ونام الكلاب وهم يلفون أذنابهم حول أجسادهم غافلين عن الحراس وكأنها كمتهم عن النباح.

وضغط النوم اللذيذ على أجفانها بثقله، فاستسلمت للكرى، وبدت خصلات شعرها الأشعث مبعثرة فوق خديها الورديين فرسمت لهما أجمل صورة. إن عينيها اللتين كانتا تريان أشكال الأشياء المادية قد أغمضتا الآن لتتفتح عندها عينا القلب، بقوة وإلى مدى بعيد، وبهما رأت فجأة فتى شاباً، أو بالأصح روحاً طاهرة، تظهر ظهوراً مشعاً من مملكة النور يخسف نور الحوريات في حدائق الأبدية. كان قوامه منتصباً مثل شجرة نخيلة فارعة، ووقفته النبيلة تخفض حتى أعلى شجرة سرو خجلاً بنفسها. وشعره الذي يتدلى على شكل خصلات مجعدة بدا كالسلاسل، كل هذا كان كافياً لأن يكسر أغلال أعقل المخلوقات. انحنى الشمس والقمر أمام شعاع حاجبيه، حين أطلق سهام أهدابه في كل قلب. وعندما ابتسم بدت أسنانه اللؤلؤية ملتمعة بين عقيق شفتيه مثل ومضة برق في ساعة الغروب. وكأن قوة ساعديه تتعارض مع نحول وسطه.

وما إن برز هذا الطيف لزليخا حتى حصل لها ما حصل! فبمجرد مشاهدة مثل هذا الجمال غير العادي والذي هو فوق مستوى البشر والمليء بالهيبة، ولم يكن معروفاً ولا حتى بين الجنيات أو الحور، وقعت في الحب بكل قلبها- ماذا أقول؟ بكل مئات القلوب! إن هذه الصورة التي لا مثيل لها ولا شبيه بقيت محفورة في ذاكرتها إلى الأبد. لقد استهلكت جميع صبرها وثباتها في حريق صدرها الملتهب. صارت روحها أسيرة لكل شعرة معطرة من شعيرات رأس ذلك الجميل، ومرأى حاجبيه جعلها تئن وهي في نومها فتبللهما دموعها، وانصهر قلبها المثقل بالمشاعر مثل قطعة سكر تحرقاً ورغبة للوصول إلى شفتيه، وكان مظهر أسنانه يستمطر عيونها لآلئ من الدموع على أهدابها.

يا إلهي! يالها من رؤيا!

وفي نهاية الأمر تلاشى ذلك الطيف المهيب مخلفاً تأثيراً كبيراً في ذاكرة زليخا. فكانت مع نفسها في صدمة، ولكنها بعد فترة قصيرة بدأت تتحقق من أهمية هذه الرؤيا وتتمسك بحلمها.

ولو أنها وعت ذلك المعنى العميق لحلمها لكانت في عداد أولئك السالكين على طريق الحقيقة، ولكنها كانت مأخوذة بالشكل الخارجي، فصارت من البداية غافلة عن حقيقة ما يكمن وراء كل ذلك!

كلنا جميعاً، مثل زليخا، عبيد لما نرى، وكلنا ضحايا للمظاهر. فإذا لم تطل الحقيقة من وراء المظاهر فكيف للقلب المخلص أن يصل إليها؟ فعندما يمد ظمآن يده إلى إبريق ماء فإن ذلك بسبب معرفته الأكيدة بأنه يحتوي على الماء، ولكنه حين يغرق في أمواج شفافة من مياه المحيط، فإنه لن يفكر بذلك الإبريق الكامد ذي القطرات الشحيحة على الإطلاق!

٦- هبوب نسيم السحر وتفتح نرجسها الوسنان وتجرعها دم الأسى كالبرعمة من حلم الليل ووضعها خاتم الصمت على شفتيها

وحين طار غراب الليل الأسود، وصاح الديك محيياً الفجر، وبدأ العندليب يصدح بأنشودته العذبة أمام الوردة، وكأنه يدعوها إلى أن تفتح أوراق تويجها البيضاء في نصاعة الياسمين وتغسل وجهها بقطرات الندى، وقام البنفسج بغسل شعره المعطر- كانت زليخا ما تزال تغط في النوم بقلبها الذي اتجه إلى محراب الليلة الماضية. ولكن لم يكن كله نوماً، بل مجرد حالة من هوس غير واعٍ سببته تلك الرؤيا الليلية.

ولما تقدمت الخادمات وقبلن يديها وقدميها، فتحت عينيها الناعستين وبدا من فتحة قميص نومها شمس مشرقة وقمر مضيء، ثم رفعت رأسها وتلفتت حولها، ولكن لم يكن هناك أية إشارة عن ذلك الوجود الجميل الذي رأته في رؤيا الليلة السابقة. وللحظة، غمرت وجهها في ثوبها فكانت مثل برعم وردة اختفى في كأسه. وبعدها اجتاحتها غمرة ألم وغضب فغامت مشاعرها الملتهبة كوردة تنطلق إلى التفتح والإزهار، إلى أن سيطر عليها شعور بالاعتدال، فتراجعت عن الغضب وأخفت سرها في أعماق قلبها المترع بالحزن، كقطعة من حجر كريم دفن في قلب منجم حجري. وحاولت كتمان دماء قلبها الفائرة دون أن تدع أية علامة ولو صغيرة دالة على ما يعتلج في نفسها. كانت شفتاها مشغولتين ببعض الثرثرة مع خدمها في حين كان جنانها يئن بتأوهات صامتة ولسانها يكلم الخادمات ولكن آلافاً من ألسنة اللهب كانت تتأجج في صدرها الذي لفحته نيران عشق الجمال. أما عيناها فكانتا تنظران إلى وجوه

من يمر أمامهما بينما مشاعرها مثبتة ومنصرفة إلى الحبيب، وشرايين قلبها كانت بيديها– ولكن أين كان قلبها ؟ لقد كان حيثما وجد ذلك الذي الحبيب الذي غزا قلبها .

كل قلب وقع في كلاليب العشق يصبح مشلولاً هكذا، فكل مناه مركّز على الحبيب – وأما الآخرون فلا يحس معهم بأي سعادة واطمئنان، وكل كلمة ينطق بها فهي موجهة إلى المعشوق، مهما بدا المظهر غير ذلك، فالمعشوق وحده هو غاية المطلوب.

لقد بدا أن روح زليخا قاربت أن تكون بين شفتيها، تكاد تلفظها آلاف المرات، حتى جاء ذلك اليوم المؤلم الذي فتح لها باب الليل على ذلك الحلم اللذيذ . وفي النهاية أرخى الليل سدوله، أجل الليل، ذلك الصديق الصدوق لكل العشاق الذي يمهد لهم سبيل الانطلاق مع مشاعر العشق. والعشاق جميعهم يفضلون الليل على النهار لأن الليل ينشر سدلاً من الظلام على أسرارهم فلا يفضحها النهار.

ولذا عندما حل الظلام، أدارت زليخا وجهها لجدار الألم، بظهرها الذي غدا بانحنائه مثل قلب آلة العود، ليعزف لحناً باكياً مرناناً حزيناً، واستحضرت صورة جمال معشوقها، ونثرت دموعها كاللآلئ حولها– غزيرة، من عينيها ثم صرخت:

"يا شبيه الجوهرة النقية ! من أي منجم أتيتَ؟ لقد استحوذت عليّ مشاعري دون أن تقول لي من أنت، ما اسمك، ومن أتيت، ولا أعرف أين أسأل عنك؟

أتمنى أن لا يبتلى أحد بالعشق بمثل ما ابتليتُ به ! إذ لم يعد لي جَنان ولا أمنيات ! لقد ظهرت لي صورتك فسرقت مني نومي، وجعلت دموعي مدرارة، ودماء قلبي فوارة. إن جسدي الأرِق قد كلّ،

وصاري صدري ملتهباً، فهل لك أن تخمد هذه الشعلة؟ أحتمٌ عليّ دوام الاحتراق بألسنة لهب جامحة؟

لقد كنت في حديقة الشباب وردة نضرة مثل مياه الحياة الأبدية. ولم يكن يكدر صفاء فكري ريح، أو تشيك قدمي شوكة صغيرة. والآن أجرد لحة وحيدة منك نثرتني هباءً في مهب الريح، وقضت مضجعي بآلاف الأشواك!".

وهكذا فتحت منفذاً لتأوهاتها في ليلها الطويل، وآل مجرى لياليها وأيامها إلى ألم لا يحول!! وهيأ قوس العشق سهامه الحادة في كل مكان حولها فلم تستطع التسربل بدرع التعقل. وإذا أصاب سهم منه مقتلاً في القلب، رسم على وجه صاحبه علامات كثيرة واضحة منه. وما أصدق المثل الذي يقول: (هناك أمران لا يمكن إخفاؤهما- الحبّ ورائحة المسك).

٧- تغير حال زليخا واستفسار المربية

وحينما أخفت زليخا أمر عشقها، كانت كأنما زرعت بذرة الحزن داخل صدرها، فصارت هذه البذرة تتوالد وتنمو إلى أعلى، وتبدو مرئية للعيان رغماً عنها. صارت تبكي بدموع غزار، وغدت كل قطرة دمع تقع من هدب عينيها فاضحة سرها. أو تطلق تأوهات من قلبها المحترق آخذة طريقها إلى السماء كالدخان، وأما خداها اللذان كانا بلون الورد فقد حالا إلى صفرة التوليب الذابل، لأنها كانت تأوي إلى فراشها دون طعام، ويجفوها النوم طيلة الليل.

كانت هذه العلامات مرئية وواضحة لخادماتها. وكان التعجب من ذلك بادياً على وجوههن، ولكنهن في حيرة عما يحدث- أومَن مسببه - وما سبب هذه الحالة المزعجة؟ أحياناً كن يقلن: هذه

عين حاسد أصابتها، أو روح شريرة انتابتها، وثالثة صارت تلعن الشياطين والجن. ومع ذلك فهناك سبب آخر بدا واضحاً بعلاماته المتميزة، إنها إمارات مرض العشق، ولكن بما أن زليخا لم تقع عيناها في حياتها على رجل، اعتقدت حاشيتها أن هذا الخطر القائم ما هو إلا نتيجة لحلم ما . إلا أن جميع هذه الأمور لم تكن إلا تخميناً، فبقي السر غير جليّ لأحد .

وكان لزليخا مربية خبيرة بالعشق وأسراره، كما كانت ماهرة في التوسط في مثل هذه الأمور، وقادرة على أن تظفر بأكثر العشاق عناداً وتصلباً . وفي إحدى الليالي جاءت إلى زليخا وقبلت الأرض بين يديها، وذكّرتها بما قامت به من خدمات لسيدتها بكل الحب والرغبة، ليالي وأياماً طوالاً منذ اللحظة التي ولدت فيها، وخلال طفولتها البريئة، ثم قالت:

"والآن، مازلتُ الخادم التي تكرس نفسها لك كما كنت من قبل، فلماذا تخفين عني سراً دفيناً في قلبك وتعاملينني كأني غريبة عنك؟ تعالي أخبريني من الذي وضعك في هذه الحالة المؤلمة؟ ولماذا تعانين هذه الحيرة والألم؟ ولماذا شحُبَ لون خديك المزهرين إلى لون أصفر؟ ولماذا أرى شمسك حال لونها إلى لون القمر وصارت تغرب في منتصف النهار؟ لكني وبكل تأكيد أستطيع أن أرى بأن قمراً آخر يغزو قلبك بعنف، أخبريني بوضوح من هو؟ إن كان ملاكاً من السماء صيغ جوهرةً من النور المقدس فإني سوف أستحضره بصلواتي وأدعيتي حتى يهبط إليك، وإن كان أحد أبناء حور الغابات والجبال، فإننا سوف نستجلبه لك بواسطة تعويذة ما، وإن كان مجرد بشر فسوف نجده لك على الفور لتسعدي بصحبته، ولو كان لا يرغب بالزواج منك، فيمكن لك أن تكوني له عشيقة لا عبدة!" .

أنست زليخا بكلام مربيتها اللطيف، وأدركت أنها لم تعد تستطيع أن تخفي الحقيقة عنها، وهكذا بدأت تجيب، ووجهها القمري تغطيه الدموع الغزار المتلألئة كالنجوم :

"ياللأسف ! إن الكنز الذي أبحث عنه غير مرئي، والمفتاح الذي يوصلني إليه ضائع. وكيف لي أن أخبرك عن طائر انبعث من العش الذي تسكنه العنقاء ؟ وعلى الأقل فإن اسم العنقاء معروف، ولكني لا أعرف اسم طائري" . كان كلامها مزيجاً من مرارة الألم ولذته.

ما أمرّ السعادة وما أحلاها وألذها ! تلك التي تعرفك باسم منى القلب فتكرر نطقه، وتردده على لسانك !

وهكذا أفضت زليخا بسرها إلى مربيتها في آخر الأمر، واستجمعت في فكرها الواعي قصة رؤياها التي رأتها في النوم، ووضعت كل أفكارها الغريبة بين يدي ظئرها وذكائها وخبرتها . ولكن هذه الظئر أحست بالضياع والحيرة، كيف تجد حلاً لمشكلتها ؟ ومن السفه أن تبحث لها عما لا تعرف عنه شيئاً . فكيف للمرء أن يلاحق هدفاً غير معروف؟وفي هذه الحال، ولو أنها لم تكن تدري ما تفعل، بدأت تهدئ من روع زليخا وتقول: –إن ما رأيته وما حصل لك هو من عمل أذى الشياطين ذوي الضغائن، إنهم من الجن يرسلون إلى الناس رؤى جميلة لكي يجعلوهم مجانين بالرغبات والأمنيات !

– ولكن كيف يستطيع شيطان أن يختلق صيغةً بهذا الجمال الأخاذ ؟

إن الله ﷻ يأبى أن يكون مخلوق مجبول على الحقد والخداع قادراً على أن يتجسد ملاكاً ! !

– إن هذه الأمور لا تعتبر ذات بال، بل هي مجرد أضغاث أحلام، ولا يستحق أن نأسف عليها !

- ولكن كيف يكون حلمي هذا زائفاً وأنا أراه صحيحاً؟ إن الحكماء يقولون لنا بأن الصواب لا يقوم عليه إلا صواب مثله، وكذا الانحراف لا يقوم عليه إلا انحراف مثله.

- والآن كفي عن هذا! إنك فتاة عاقلة، وما عليك إلا أن تطردي هذا الخيال السخيف من تفكيرك!

- ولكن هل تظنين بأنني استطعت بملء إرادتي أن أجعل نفسي مرهقة بفعل هذا العبء الثقيل؟ لقد فقدت السيطرة على نفسي وفقدت من يدي زمام السيطرة على إرادتي. إن هذه الصورة التي ملأت قلبي المتألم لأكثر صلابة من مرمر منحوت، ولا يمحوها منه موجة أو عاصفة قوية.

ولما أدركت الظئر هذا اليقين الثابت لدى زليخا في عشقها، توقفت عن إسداء النصائح، ومن ثم ذهبت سراً إلى والد زليخا وأخبرته بما حدث، وهنا صُعِق بما سمع، ولكنه بما أنه لا يستطيع أن يجد لهذه الحالة علاجاً وجد أن عليه أن يترك الأمور ليد الأقدار.

٨- حلم زليخا ثانية وتحريك سلسلة عشقها وجرها إلى ورطة الجنون

ما أسعد القلب الذي جعل العشقَ مأواه! فالعشق ينسيه هموم العالم! إن العشق مثل صاعقة البرق التي تضرم النار في الصبر والعقل ثم تحولهما إلى لا شيء. وبذلك يصبح العاشق غير مكترث بسلامة نفسه، ومع أن أثقالاً كالجبال من اللوم تقع عليه فإنها تبقى بالنسبة له في وزن القشة، ولا يزيد اللومُ العاشقَ إلا عشقاً.

ومرت سنة كاملة صارت زليخا من خلالها تنحل وتهزل، لقد صار هذا القمر في ليلة تمامه إلى هلال ناحل- منحنياً هزيلاً لا يُرى إلا بصعوبة في وقت الفجر ذي الحمرة المصبوغة بلون الدماء.

وكانت في كل ليلة تندب حظها وقدرها وتقول: أيتها الأفلاك الدوارة ماذا فعلت بي؟ لقد جعلت الشمس تبدو شاحبة الضياء أمام ناظري، وكسرت قوس الصبر عندي وجعلتني هدفاً لسهام اللوم! لقد حملتني عالياً إلى طيف مجهول عنيد، لا أعرف عنه شيئاً سوى عناده هذا. بدأ بإشعال قلبي بالعشق في هدأة نومي، والآن يضنّ عليّ بأن يظهر لي مرة أخرى. إنه لا يأتي إليّ وأنا يقظى أبداً، بل يقض مضجعي ليلاً والآن يمتنع عن التبدي لي في الرؤيا.

صارت تشغل نفسها بمثل هذه الكلمات طيلة ليلها، حتى كادت تزهق روحها من شدة الألم، إلى أن يأتيها سلطان النوم- أو بالأصح حتى يخطفها عقلها اللاواعي بعيداً عن هذه الأفكار. ولكن يا للفرحة! الآن! نعم لقد دخلت صورة منى قلبها ثانية إلى حجرة نومها فلم يعد جسدها يتوقف عن الحركة! أجل!! إنه ذلك الجمال المنير نفسه الذي سبق أن ظهر لها يأتيها في رؤيا أخرى!

ولدى رؤيته، إذا بها تثب وتلقي بنفسها على قدميه وتقول صارخة ضارعة: أنت يا من سرقت من قلبي هدوءه وطمأنينته وصبره! أتوسل إليك باسم الواحد الأحد خالق كل شيء، الخلاق الذي صاغك جميلاً نقياً من دون عيب، بل من محض نور ساطع، وأعطاك مكانة جمالية عليا على جميع مخلوقاته الجميلة، ومنحك مزيداً من الهيبة ما يزيد على جميع أطوار الحياة الأبدية، إنه الله ﷻ القادر الذي جعل وجهك مضيئاً كومضة مشكاة متوقدة، فجعل روحي المسكينة أسيرته، فأحرقت نفسي فيه كفراشة المصباح حتى صارت كل خصلة من شعرك المسك تأسرني. أرجوك باسم العلي القدير، أن ترحمني! أجبني: وافتح شفتيك اللذيذين كالعسل، الحمراوين كالعقيق وأخبرني- أيها الجميل جداً والآخذ بمجامع القلوب- أخبرني ما اسمك ومن أنت؟؟ أجاب الطيف الجميل:

"أنا واحد من أبناء آدم، ومخلوق من طين هذا العالم. إنك تدّعين عشقي. وإذا كنت مخلصة لي حقاً، فحافظي على هذا الإخلاص، وابقي دون زواج من أجلي! لا تدعي أحداً يعض شفتيك المعسولتين، ولا تسمحي لأية جوهرة أن تثقب لؤلؤتك! وإذا كان صدرك يضج بالشوق إليّ، فلا تظني بأنني أقل منك شوقاً ومعاناة. إن قلبي مليء أيضاً بالجراح من جراء عشقي، وغدا أسيراً في شباك حبك". وبعد سماعها هذه الكلمات الرائعة، إذا بجنون العشق عندها يجعلها أكثر تعلقاً به، ويمنحها قوة جديدة على قوة في العشق!

وعند إشراقة الصبح نهضت، وهي تحس بالنار تشتعل في صدرها، بل ازدادت نيران قلبها أكثر من ذي قبل والتهبت بعواطف جياشة لا تستطيع احتمالها، حتى إن تنهداتها صارت تُخرج دخاناً يصعد إلى أعالي السماوات، وتضاعف عذابها مئات الأضعاف، ولم تعد تعرف لحيرتها حدوداً، وفقدت زمام التعقل وأحست أن كل شيء ينفرط من يديها. وكبرعم يشق جيبه ليتفتّح، شقت ثوبها، وهي تفكر بوجه معشوقها وخصلات شعره، ثم أنشبت أظافرها في وجهها أسفاً وبدأت تشد شعرها الغزير ألماً وشوقاً!!

وتحلقت وصيفاتها وخادماتها حولها فبدونَ كهالة حول القمر، ولكن زليخا انتهزت أدنى فرصة لتهرب بسرعة قوس منطلق، وربما أسرعت غير واعية تركض في أنحاء القصر، لولا أن خادماتها أمسكن بتلابيب ثوبها وأرجعنها إلى الوراء ليسترن حالها المزرية، وأدخلنها إلى غرفتها.

وعندما علم والدها بما حدث، بدأ يسأل مستشاري قصره النصيحة، ولكنهم لم يهتدوا إلى علاج غير القيود، وهكذا، وضعت سلاسل ذهبية على شكل ثعبان مرصع بالجواهر حول قدميها، كحية تحرس كنزاً. فبكت زليخا قائلة:

"يا قلبي المسكين المقيد بقيود الحب، قد يكون هذا حلاً مناسباً لي في هذا العالم! ما أغرب هذه الحيلة من قدري المعادي لي حتى يقيدني بهذه الطريقة، فغدوت لاحول لي ولا رغبة في أن أتحول من مكاني! كم هو خائب هذا الحل، أن يُقيّد جسمي إلى الأرض بهذه السلاسل الثقيلة، وأنا أصلاً غارقة فيها حتى الجذور! إنه هو من يستحق أن يقيد بسلاسل الحديد، ذلك السارق الذي سرق قلبي مني في لحظة واحدة، ولم يتبدّ أمامي بما فيه الكفاية لكي أشبع عينيّ من سيماء وجهه، لقد مر في رؤياي بسرعة مثل ومضة برق، مثيراً دخاناً من قلبي المشتعل. ليتني أستطيع أن أقيد بهذه السلسلة الذهبية قدمه، وأحملق في وجهه وأطمئن قلبي وأنير أيامي المظلمة! ولكن ماذا قلت؟ لا، لا أريد ذلك، لأنه إذا جرحت قدمه بمجرد حبة رمل صغيرة فإن أثقالاً من آلام كالجبال سوف تؤلم روحي، وتطوي بساط السعادة عني"!

إن كلمات العشق التي سمعتْها وأُلقيت عليها كالسهام، جرحتها في النهاية وأصمتها وأصابت منها مقتلاً ووصلت إلى هدفها. وهنا، وبقلب مجرح بالصدمات انهارت زليخا كحيوان أصابه سهم صيد. ووقعت فوق التراب لبعض الوقت، ولما عادت إلى وعيها، كأنما عاودتها نوبة جنون مرة أخرى! وبدأت بالبكاء مرة وبالضحك أخرى، بصورة متناوبة، فلا نعرف أكانت حاضرة أم غائبة.

واستمرت على هذه الحال مدة سنة كاملة.

٩- رؤيا زليخا ليوسف ثالثة، معرفتها مقامه، عودتها إلى عقلها

مرحباً بك أيها العشق! يا من سحره الخدّاع يجلب السعادة فترة ثم الشقاء فترة أخرى- اجلب التعقّل للمجانين والجنون للعقلاء. . . !

في إحدى الليالي، وفي غمرة ألمها الذي لا ينقطع من سكرة الأسى الذي كان رفيقها الوحيد، أحست زليخا أنها تتجرع كأس الحزن حتّى الثمالة. لقد تمزق غطاء رأسها وحَثَت التراب على وجهها وشعرها الأشعث، ثم خرّت ساجدة، بظهرٍ متقوّس لم يعرف الانحناء، وصارت تبث آلامها وأحزانها إلى حبيبها بعين باكية، قائلة:

"لقد جردتني من عقلي وطمأنينتي، وملأت أيامي بالأسى! وجلبت علي التعاسة من دون أي عزاء أو سلوان. وأخذت قلبي دون أن تعطيني قلبك مقابل ذلك. إنني لا أعرف عنك شيئاً ولا حتى اسمك، ولو عرفته، فإنني سوف أردده بإخلاص وسيكون على شفتي كتسبيحة، ولكني لا أعرف أيضاً من أي بلد أنت، وأين تعيش. ولو عرفتُ فإنني سوف أذهب إليها وأتجول على ترابها العزيز.

لقد درجتُ على أن أكون حرة أفعل ما أشاء، والابتسامة لا تفارق شفتي، فغدوت الآن أسيرة لحبك، وغدا قلبي منقبضاً مفتولاً مثل عمودِ السكر. لم أتصور في حياتي أو أحلم بأن أكون في هذا البؤس والهوان الذي أنا فيه الآن! فمربيتي باتت نهباً للجنون، ووالدي في حرجٍ من حالتي، وحتى الخادمات هربن مني وتركنني وحيدة نهب الأسى، لقد أشعلتَ النار في روحي، فغدوتُ وكأنني هشيم قش محترق، فهل هذه طريقة تعامل بها مخلوقة ضعيفة لا حول ولها ولا قوة؟".

هكذا صارت تخاطب حبيب قلبها ومناه، حتى أنهكت وغرقت في سبات عميق. وما كادت عيناها الناعستان تغرقان في النوم، حتى عاودها ذلك الخيال زائراً لها في ظلام الليل بادياً في الرؤيا أكثر جمالاً من ذي قبل، وأجلّ من أن يوصف. وجثت زليخا على حافة ثوبه، وهي تبكي وتمطر قدميه بدموعها الغزار وتقول: "إن حبي لك سرق من قلبي هدوءه ومن عينيّ رقادهما، أتوسل إليك، باسم موجد هذا الكون، الذي خلقك طاهراً وجعلك فوق الأشياء الجميلة في هذا العالم والعالم الآخر – أن تضع حداً لآلامي: وأن تخبرني باسمك وأين يقع المكان الذي توجد فيه.

وجاءها الجواب:

"إذا كان هذا كل ما تريدينه، فأنا عزيز مصر، ومصر هي المكان الذي أعيش فيه. إني أحد المقربين من الملك، ورتبتي العالية تخولني التصرف بكل الأبهة والمجد في أرض مصر".

كان هذا ما سمعته، فكأنما عادت إليها الحياة بعد ميتة مر عليها مئة عام! وغدت تلك الكلمات التي سمعتها في الرؤيا كجرعة لذيذة أعادت القوة إلى جسمها والصبر إلى نفسها، والتعقل إلى فكرها، بعد أن كانت تأوي إلى فراشها مجنونة. الحمد لله أن هذا الحلم السعيد أنهضها عاقلة كما كانت من قبل. ونادت على أتباعها وخدمها المنتشرين هنا وهناك وأخبرتهم بأنبائها السارة:

"بما أنكم شاركتموني آلامي، فاذهبوا الآن إلى والدي وأخبروه بالأخبار السارة التي سوف تخفف ألمه الذي يلهب قلبه وقولوا له: لقد استرديت عقلي، وذلك الجدول الذي كان يمر جافاً في عروقي بدأ يتدفق من جديد. أزيلوا القيود عن قدميّ، لن تخافوا علي الجنون بعد اليوم، أبداً. دعوا والدي يكسرها بيديه"!

وعندما سمع الملك كل هذا، غمرته السعادة حتى كاد يفقد صوابه. وسارع إلى سروته الفارعة، وفتح فكاك الأفاعي الذهبية من قدميها ليحرر جميلته ذات الصدر الفضي من أغلال تلك السلاسل الذهبية. وانحنت الوصيفات أمامها، وتوجن رأسها بتاج من ذهب. ومنحنها وسائد عالية لكي تتكئ عليها وترتاح، وزيّن جبينها بتاجٍ فخم. وتدفقت الجميلات من حولها يجلسن كالحور- فبدون كالفراش يتهافت حول لهب المصباح، وفي حبور صارت تتحدث إليهن جميعاً. وهنا بدأت تثير أحاديث حول المدن المختلفة والبلدان في العالم- اليونان، وسوريا، وما هو أبعد منهما، ثم ذكرت بعدها في نهاية حديثها، مصر – نطقتها لذيذة كالعسل على شفتيها!

وأخيراً، وبعد أن ذكرت عدداً من المصريين ذوي المراكز هناك، بدأت تقرب حديثها عن عزيز مصر، ولما تفوهت بذلك الاسم، أحست نفسها تكاد تنهار، وتدفقت الدموع من عينيها، وتصاعدت زفراتها حرّى عالياً إلى السماء وما أحلاها من زفرات!

وهكذا قضت أيامها ولياليها تتحدث عن هذا الحبيب وعن بلده، وكان هذا شغلها حديثها الشاغل، وإلا فليس لديها غيره، ما تتحدث عنه.

١٠- مجيء رسل ملوك الأطراف لخطبة زليخا ويأسهم وعودتهم خائبين

ومع أن عقل زليخا كان مشوشاً من جراء عواطفها. فإن شهرة جمالها قد انتشرت في الأرض، وكل من سمع عن فتنتها التي توصف بها فإنه ما يلبث أن يقع في حبها. وصار جمالها أهم حديث في محافل الملوك، وشرع يتقدم لخطبتها كثير من الخاطبين المنسوبين للأسر المالكة. والآن وقد عوفيت من جنونها واتخذت مكانها على عرش المجد والحكمة، بدأت الرسل الملكية تفد من جميع الأصقاع ضيوفاً

على مملكة أبيها، من سوريا، ومن اليونان، وآخرون من مقاطعات أخرى، يقدمون الولاء على أبواب قصرها. وقام كل خطيب يتقدم إلى أبيها يجلب هدية تقليدية تمثل عربون صداقة بلده.

وصار هؤلاء الرسل يقولون: "إن أية جهة يتجه نحوها هذا الجمالُ الذي ينافس الشمس، فإن عرشاً وتاجاً ينتظراه فيها". هذا ما قالته رسل الملوك، وكلّ منهم كان يمثل ملكاً شهيراً معروفاً. وعندما أُخبرت زليخا بذلك كانت شديدة اللهفة بأن ترى إذا كان من بين الخاطبين أحد من مصر وسط هذا الحشد من الرسل. وكانت تقول:

"إني لا أحب إلا مصر، فمصر فقط هي التي تجتذبني. وما نفع كل هؤلاء الرسل من أي مكان آخر؟ إن النسيم الذي يهب عليّ من مصر، ويجلب لعيني غبار مصر لهو عندي أعز بمئات المرات من الرياح المضمخة بعبير المسك من سهول بلاد التتار!".

كانت شديدة الانشغال بمثل هذه الأفكار، عندما جاء والدها يستدعيها ليحدثها قائلاً بلطف وحنان:

"يا نور عيني، ويا فرح قلبي الخالي! كل مملكة متوجة في هذا العالم بالملوك، لديهم قلب مبتلى بحبك، والآن كل واحد منهم أرسل رسوله على أمل أن يحظى بك عروساً له. دعيني أردد أسماء رسلهم على مسمعك، لكي نرى أياً منهم سيحظى لديك بالقبول، وأية بلاد تشحذ خيالك، لكي أجيب على الفور وأحقق لك ما تصبين إليه". وطفق يقرأ عليها أسماء الخاطبين الملكيين، وزليخا تسمع بانتباه، على أمل أن تسمع اسماً مألوفاً لها. وكم كان يلذ لها أن تُنصت، فلعل الاسم الحبيب الذي حدثها يمر بين هؤلاء! إلا أن هذا لم يحدث! ولم يرد أي اسم لمصر، ولم يأت من هناك رسول بأي عرض للزواج. وفي غمرة دموعها اللؤلؤية على أهدابها قالت، وهي تندب حظها:

"ليت خالقي لم يخلقني! أو حين ولدت لم ترضعني مرضع! أي نجم بدا بطالع نحس عند ولادتي؟ أيتها السماوات العُلا، هل تخبئين لي خيبة أمل؟ إذا كنت لا تريدين أن أسافر إلى حبيبي، فلا تبعديني عنه هكذا! هل الموت هو ما تريدين لي؟ إنني هنا مستعدة، فاذبحيني بقسوتك! أم هل تريدين أن تريني مزيداً من الآلام؟ لقد جرحتني آلاف الجروح ومن المؤكد أني أستحق الآن شيئاً من الرحمة! ومع ذلك فلو كنتُ سعيدة مترعة كأسي بالسعادة أو بالأسى، فهل هذا يهمك؟ وإذا كانت الحياة مريرة أو لذيذة عندي، فهل تعبئين؟ من أنا؟ وما الفرق بين وجودي وعدمه بالنسبة لك؟ وهل يهمك أن تجرف العاصفة حزم حصادي جميعها، وتبددها؟ فمئات محاصيل الحصاد عندكِ ليسوا سوى حبة وحيدة من شق النفس! لقد قذفتِ بآلاف الورود المتفتحة الندية إلى رياح الصحراء لكي تذوي وسط زفرات حرّى، فلماذا إذاً تدوسينني وتصدينني؟ وكأنه ليس لي ميزة عن الباقين؟"

ولما أدرك الوالد عاطفتها التي لا تُقهر، ما كان منه إلا أن صرف هؤلاء الرسل، كأنما يقول لهم إنه قد ارتبط بوعد مسبق مع وزير مصر بأنه سيزوجه ابنته، وأن لا يستطيع الإخلال بهذا الوعد. فعاد الرسل منزعجين إلى ديارهم صفر الأيدي!

١١- إرسال والد زليخا إلى عزيز مصر وعرض تزويجه ابنته له، قبوله

وأحست زليخا بجرح عميق ينفذ إلى داخل كيانها، وازدادت الجروح حتى صارت جبالاً من اليأس، واحداً تلو الآخر. ولما رأى الوالد حبها اليائس لعزيز مصر، رأى أن العلاج الوحيد لمرضها هو أن يرسل رسولاً إليه لكي يحدث نوعاً من التأثير على هذا العزيز ليخطب ابنته. ولكي يحسم الأمر، اختار أحد خلصائه المعروفين بالحكمة رسولاً، لعل زليخا تذكر إلى العزيز. وهكذا قام الرسول بكلمات

تشجيعية مع شيء من المديح، وقدم إليه عدداً لا يحصى من الهدايا، ثم انتهى بقراءة الرسالة التالية:
"التحيات إلى من تمنحه السماء يومياً مضاعف التأييد، مَنْ قبلت الحظوظ غبار أعتابه. لقد أشرقت عندي شمس موسومة بالعفة، وجمالها المستتر خسف ضوء القمر، إني أتحدث عن ابنتي التي هي أنقى من اللؤلؤة المخبوءة في الصدفة وأكثر ضياء وإشعاعاً من النجم اللامع. لم ير أحد وجهها سوى مرآتها، ولم يلامس شعرها ويداعبه سوى مشطها. ومع أنها بقيت مخدّرة بورع خلف ستائر الاحتشام والحياء، فقد سرت مئات الإشاعات عن جمالها وذاعت في العالم، وصار كل ملك من الشرق إلى الغرب متيماً بحبها، يتجرع دماء قلبه من شدة هذا الحب. ولكن لم يلفت انتباهها منهم أحد، فقد كانت تفكر في مصر وحدها، ودموعها تجري على خديها غزيرة كمياه النيل، وتسقي الدرب التي تصل إلى هناك، إني لا أعرف سبب افتتانها بمصر. ومن دون شك أنها خُلقت من طينة تلك البلاد وأنه مرسوم لها بأن تعيش فيها.

وبناء عليه، إن كان يسر معاليكم، فسوف نرسلها إلى بلادكم البهيجة، وإذا لم يكن جمالها يستحق بقاءه في المكان المشرف في قصركم، فدعها على الأقل تمسح بلاطه كخادمٍ متواضعة".

ولما قرأ العزيز تلك الرسالة، أحس بأن تاجه يلامس الأعالي من فرط السعادة وبتواضع انحنى وأجاب: "من أكون حتى أجرؤ على بذر مثل البذرة الكريمة في قلبي أو أفكر في ذلك؟ ولكن مادام جلالتكم قد تعطف وصمم على أن يرفعني من الحضيض، فإنه ينبغي علي أن أرفع رأسي إلى السماوات. إنني مثل الأرض الموات التي رويت فجأة من الأعالي بغيوم ربيعية من الفضل الملكي. ولو كنت أملك آلاف الألسنة فلا أستطيع أن أؤدي لمولاي الملك حق الشكر. إن واجبي الأول هو أن أسارع

وأقدم له ولائي، ولكن بكل أسف أقول، إن جلّ وقتي مزدحم بالأعمال في قصر الملك– ينبوع الحكمة! وإني على وجل من أن تغيباً من جانبي، ولو لفترة قصيرة عنه، قد يعرض رأسي لسيفه البتّار، بسبب غضبه، ولذا فإني أستميحك عذراً في أني لا أستطيع أن أقوم برحلة إلى بلدك، وثق بأن هذا مني لن يكون علامة على أني متحفظ أو غير مبدٍ اهتماماً بما قلت. وبعد أن آخذ إذناً من الملك، سوف أسعى لأخذ إعفاء منه عن بعض واجباتي وبعدها أرسل قافلة مؤلفة من مئتي محفة ذهبية مصحوبة بألوف من أجمل الشباب والشابات وكلهم يقودهم رجال من ذوي الذكاء والحصافة، وهؤلاء سوف يكونون حراساً لعروسي في مقرها الذي سأعدّه لها".

ولما سمع الرسول هذه الأعذار انحنى باحترام وقال:

"أيها السيد المعظم– يا من جلب المجد مئات المرات إلى أرض مصر فأزهرت الحياة على يديه حقولاً من الكرم! إن سيدي لا يحتاج إلى هذه الحفاوة من الحرس، وهو في غنى عن أي شيء من ذلك الذي ذكّرت. إن عبيده من الذكور والإناث لا يعدون ولا يحصون، وجواهر هباته المتلألئة لأكثر وفرة من رمال الصحراء. وأمنيته الوحيدة هو قبولك عَرضه هذا، إنه لسعيد ذلك الذي يستطيع إسعادك. وما دمت قد قبلت على مائدتك الثمرة التي يمنحك إياها، فلن يتوانى عن إرسالها إليك".

وعاد الرسول الحكيم مسرعاً من مصر، ليحطم الأغلال التي تكبل نفس زليخا. فلدى سماعها الأخبار السعيدة قامت تفرغ من نفسها كل شيء لتملأها بحب هذا العزيز، فهل أن وردة سعادتها بدأت تزهر وعنقاء حظوظها بدأت تحلّق؟ وهكذا كان ...

لقد أَسَرَها حُلم وحرّرها وهم!

آه ... ! هذه هي طبيعة الحياة، سواء مسراتها وآلامها، ولو كانوا نتيجة أحلام وأوهام. وسعيد هو الذي لا يكترث لأمور الدنيا ولا يلقي لها بالاً، ويهرب سالماً من هذه الدوامة.

١٢- هبوب نسيم القبول من مصر وشد رحال محمل زليخا إلى بستان مصر

وحين تأكد الوالد من سرور ابنته بما فعل، بدأ بإعداد موكب العرس، فجمع لهذا الموكب ألفاً من الوصيفات الجميلات ذوات اللواتي كن مجلوبات رقيقاً من شتى أنحاء الأرض، من اليونان وروسيا وغيرهما، حمر الوجنات، ناهدات الصدور زُهراً، حواجبهن سود طوال مخططة بلون المسك الأسود. وبشراتهن تضج منها براءة الشباب وجماله وجمرته، فتيات متفتحات كورود الصباح. وفي الموكب أيضا ألف من الوصفاء المرد، يخلبون الألباب ويأخذون بمجامع قلوب كل من شاهدهم ويأسرونها بمظهرهم الجميل وبقبعاتهم الحمر التي مالت على رؤوسهم بطريقة ممتعة، وخصلات شعورهم المدلية المتناثرة المعطرة من تحتها، مشهد موكب يأسر حقاً مئات القلوب حيثما حل.

وبعدها كان هناك ألف من الخيول الأصيلة متحفزين سلسي القياد، أسرع من كرة يقذفها المضرب، يسيرون الهوينى كأنهم جدول يتدفق فوق مرج أخضر، ينتظرون مجرد خيال من حركة السوط لكي ينطلقوا على وجه الأرض.

وأخيراً جاء دور الإبل البُخت التي هُيئت بالعدد نفسه في موكب مهيب وأسنمتها كأنها الجبال، ومع ذلك تسابق الريح في اختفاء أخفافها وهي تركض. كانت في حال صحو كالزهاد، تحمل أوقارها بصبر الزاهدين المؤمنين بالله، لقطع صحارى شاسعة ومهامه قفراً، وعلى ظهورها أحمال من البضائع الثمينة، تساوي ضرائب بلد كامل في كل حمل.

وأُعدّتْ لزليخا نفسها محفّة، فيها حجرة عروس حقيقية، أنيقة تدل على ذوق طبقة اجتماعية عليا، امتلأت بأحدث أنواع الزينة من أخشاب العود والصبار، ألواحها الخشبية مزدانة بالذهب، وسقفها مطعم بالجواهر، وقبتها الذهبية تبرق كأنها الشمس، وفي داخل المحفة وخارجها قطع من الذهب وحبات من اللؤلؤ معلقة على أقمشة مقصّبة تخلب الألباب وتزدان بالألوان وحسن التصميم.

وفي وسط هذه المحفة المزدانة أُجلست زليخا تحوطها آلاف من الدعوات والعبارات اللطيفة، وانطلق الموكب تجاه مصر. ولما كان أسطولها مؤلفاً من الخيل السائرة على الأقدام، فقد تقدموه مثل وردة متفتحة يدفعها نسيم الربيع، وكأن الربيع يمشي معهم من بلد إلى آخر.

وهكذا، مرحلة بعد مرحلة أخذوا وجهتهم صوب مصر حتى وصلوا إلى هدفهم، وأُرسل فارس يعدو فوق جواده رسولاً إلى العزيز ليخبره بوصول عروسه. واطمأنت زليخا بنصيبها، حين شارفت الرحلة على النهاية. ومن خلال ليالي آلامها بدأت ترى أن الفجر قد آذن بالانبلاج، وأن الفراق المر سوف ينتهي عما قريب.

ولكن يا للأسف! لم تكن تتوقع أبداً كم هي سوداء سوف تكون تلك الليلة، وأن رحلتها مازالت طويلة قبل أن تبلغ فجرها المأمول!

١٣- سماع عزيز مصر بمقدم زليخا، استقبالها بالعسكر في زينتهم

عندما سمع العزيز الأخبار السارة عن وصول موكب عروسه، أحس أنه سيد العالم. وأمر جيش مصر بأكمله أن يقوم بعرض عسكري، وارتدى حلته الرسمية وازدان من رأسه إلى أخمص قدميه بالذهب والجواهر. وأعدّ آلافاً من الشباب والشابات– وصائف جلسوا منتصبين على سروج الخيل مثل

شجر النخيل الذهبي الأهيف، ووجوههم جميلة كالأقمار، والشابات منهن اختبأن داخل الهوادج خلف ستور من قماش قصبي مذهب.

وانطلقت من موكب زليخا أصوات رخيمة لعازفين يغنون عذب الأغنيات التي تغنى عادة في الأعراس، يرسلون أنغاماً بهيجة وألحاناً قوية من المعازف الوترية: الهارب ذي العزف الرخيم ثم العود الذي يثير في الروح أشجاناً عذبة عن قرب اللقاء، ثم الربابة التي تهدئ آلام النفس، وأخيراً الكمان الذي صدحت أنغامه صاخبة، رافق هذا ضربات طبول مدمدمة ومنسجمة مع تلك الأصوات. أجل! لقد انطلق هذا الموكب معطياً الحرية لأفراحهم، وبعد ذلك وصلوا على وجه التحديد إلى تلك الشمس بين هذه الأقمار: هناك ارتفعت مظلة زليخا في وسط المحفة، محاطة بحشد كبير من المخلوقات الجميلة.

وإزاء هذا المنظر، بسم العزيز لشمس الصباح المشرقة. وترجل من صهوة جواده، وسار في اتجاه المظلة. وتقدم الخدم والحشم إليه بوجوه طلقة تضيئها بسماتهم كأنهم زهور حديقة في أوج تفتحها، وقبلوا الأرض أمام قدميه. وبكل كياسة رد العزيز على كل واحد منهم وسألهم عن حال العروس وكيف تحملت مشاق الرحلة. ثم أمر بإبراز ما أعده من موكب وهدايا رأى أنها مناسبة تماماً: وُصَفَاء مبتسمين ابتهاجاً ابتسامات عذبة، بقبعات وأحزمة ذهبية، خيول مطهمة مجهزة بسدول فخمة، ومغطاة بالجواهر من الرأس حتى الذيل، فراء ثمين، أقمشة حرير نادرة، مجوهرات فريدة، حلوى مصرية، ومشروبات لذيذة. كل هذا أعده قبل وصولهم، مع الاعتذار والتنويه بأن هذا لا يليق بالمقام وأنه يجب أن يقدم أكثر منه. وبعدها رتب أمر المغادرة إلى المدينة في اليوم التالي، ثم عاد إلى خيمته.

١٤- رؤية زليخا عزيز مصر من فتحة الخيمة وخيبة أملها

لاشك أن القدر ساحر قديم مشعوذ خدّاع، متمرن على الحيل في تعذيب بني الإنسان المساكين. إنه يأسر قلوب مرضى العشق أولاً ويمنيهم الأماني، وفي النهاية يكبلهم بأغلال اليأس ويريهم، عن بعد ثمرة ما رغبوه، ثم يثنيها بضلالات مريرة!

لم يكد العزيز يلقي بظله على الخيمة التي تظلل زليخا ووصيفتها، حتى شعرت الأميرة برغبة جامحة لرؤية وجهه فقالت للوصيفة: "يا صديقي العزيزة القديمة رتبي لي الأمور حتى أرى ولو لمحة بسيطة منه، لأني لم أعد أحتمل الانتظار أكثر من هذا !"

لا تكون أمنيات الحب قوية إلا حين يكون المعشوق قريباً شديد القرب. وحين يكون المرء على شفا الموت من العطش، تتحرق شفتاه شوقاً إلى قطرة ماء ليبل ريقه منها . وحين رأت الوصيفة هياج زليخا لرؤية الحبيب، خرجت ومشت حول خباء الوزير، وأخيراً استطاعت أن تتدبر الأمر بأن تقوم بفتح كوة صغيرة في قماش المظلة.

واقتربت زليخا ووضعت عينيها في الفتحة، وبعدها إذا بها تطلق تنهيدة حرى كئيبة كأنما اهتز العالم حولها حتى كاد يسقط، وقالت بأسى:

"إنه ليس الرجل الذي رأيته في الحلم ! فالذي أبحث عنه، والذي كلفني كل هذا البؤس، هو الذي سرق مني عقلي وجعل الجنون يسري في عروق قلبي. إن من أراه ليس الذي أخبرني عن سره وأعاد لي عقلي. يا للهول ! لقد ولدت مع نجم نحس، وغرست لي نخلة، لم أجنِ منها سوى الشوك. بذرت بذرة الحب ولم تعطني شيئاً سوى المعاناة. لقد قاسيت صعوبات جمة لكي أجد كنزاً، فانتهى بي الأمر أن

أجد ثنيناً بدله! ما أشبهني بمسافر في رمال الصحراء، يركض هنا وهناك بحثاً عن الماء، ولسانه جاف من العطش متشقق يتدلى على شفتيه الداميتين. وفجأة عن بعد، يرى ما ظنه ماء، فيمشي مضطرباً يقوم ويقعد حتى يزحف نحوه متثاقلاً، وأخيراً عندما يصل إلى المكان الأجوف لا يجد ماءً بل ملحاً أجاجاً يلتمع تحت أشعة الشمس!

وما أشبهني أيضاً بدابة أثقال ضاعت في الجبال وانهارت إلى الأرض جائعة، جرحت قدماي الصخور الناتئة، فليس عندي طاقة لمتابعة طريقي، ولا قدرة لي على التوقف حيث أنا. وفجأة خيل إلي بأني وجدت جماعة ضالة: فوسعت خطواتي وتشجعت وجددت قواي- ولكن هكذا حظي، إنه أسد مفترس!

إنني ربان محطم السفينة، جالس منفرج الساقين على لوح خشبي يدفعه الموج عالياً ثم يهبط به على سطح الماء، وفجأة يأتيني قارب عن بُعد. وعندما تشجعت، ظناً مني أن النجاة وشيكة وأنها جاءت مسرعة إلي- إذا بغولٍ مروّع ينحني أمام حتفي!

فهل من شيء في العالم أشد بؤساً ووحدة مني؟ لقد ضاع قلبي! والآن لا قلب لي ولا حبيب. وما عدت أملك سوى حجر ثقيل في صدري!

يا ربي الرحيم، ارحمني، وافتح أمامي ولو باباً واحداً يقودني إلى الحبيب، فإذا لم تكن تلك مشيئتك، فدعني ألمس ولو هدباً من ثوب حبيبي، وعلى الأقل لا تدعني أذهب إلى إنسان آخر، لا تخرق ثوب شرفي، لا تدع أحداً يلمس ولا حتى هدباً منه. لقد حلفت لحبيب قلبي الغيور أن أحافظ على كنزي، وألا أدع التنين يلمسه!"

وبدأت تتأوه حتى وقت متأخر من الليل، ودموعها الغزار تنحدر على وجنتيها وتبلل أهدابها. وصارت تحثو التراب على وجهها وتنوح بقلب كسير.

وأخيراً قام طائر الرحمة والعناية الإلهية، ملاك السر جاء من الأعالي وطار أمامها قائلاً:

"انهضي أيتها البائسة! إن حظوظك التعيسة سوف تزول. قد لا يكون العزيز منى قلبك، ولكن دون هذا العزيز لن تحصلي على حبيبك. فالشكر لهذا العزيز الذي سوف يوصلك إلى هدفك. وفي نهاية الأمر لا بد أن تنظري بملء عينيك إلى الحبيب وتتملي من جماله، لا ينقبض قلبك عن صحبة الوزير، فسوف يترك حفرتك الفضية كما هي، لن يلمسها، لأن مفتاحه كالشمع اللين، لا تخافي! فمن كَمْ فارغ لا تمتد يدٌ تُشهر خنجرا!".

ولما سمعت هذا الكلام الطيب من العالم غير المرئي، سكتت زليخا قليلاً، مع أن ألمها بدأ يشدها من الداخل، فقاست الآلام بصمت، دون أن تطلق آهة واحدة. وبعينين تتطلعان إلى الطريق الممتدة أمامهما كانت تتساءل متى تنتهي محنتها هذه؟!

١٥- قدوم زليخا برفقة العزيز وخروج الناس لنثر أطباق الذهب أمامها

وحين طلع الفجر بدورة من طبله الذهبي معطياً الليل إشارة لكي يقوض خيامه، وصل العزيز وسط احتفال كبير، وطلب إلى عروسه أن تغادر خيمتها وتأخذ مكانها في المحفة. ثم أعطى الأوامر لكي يصطفوا أمامها وخلفها وعلى جانبيها.

كانت المظلات المزخرفة تظلل هذه المخلوقات السعيدة بظلالها فغدا منظرها كالأشجار المذهبة، وتحتها جلس العروسان مستويين على سروج مذهبة ومطهمة، وكل هذه الأشجار وهذه الظلال وهذه السروج،

وهؤلاء الخلق الذين بسم لهم الحظ- كلهم تقدموا في موكب مهيب، وانطلق العازفون يرسلون أنغامهم الشجية، وقام حداة الإبل ينشدون، ووصلت جميع هذه الأصوات المختلطة إلى قبة السماء التي بدت مجرتها كالوعاء المقلوب. كانت الأرض مغطاة بعلامات حوافر الخيول وأخفاف الإبل- كلها مدورة مثل الأهلة. ولأجل هذين الغزالين الجالسين على الصهوات، صار وقع حوافر الخيل المجتمعة رتيباً كألحان عذبة، وكأن أغاني الحداة غدت ترنيمة قصيرة تعزفها آلة موسيقية للوصيفات الفاتنات الجالسات في الهودج.

وفرحت وصيفات زليخا فرحاً عظيماً حين رأين الأميرة الجميلة قد نجت من شيطان الفراق، ولم يكن العزيز، بحاشيته المهيبة أقل فرحاً منهن حين حاز على هذه الحبيبة العظيمة لتكون سيدة لقصره.

ولكن في داخل المحفة الملكية كانت زليخا ما تزال تئن من قدرها القاسي وتقول:

"أيتها السماء، لماذا تعاملينني بهذه الطريقة؟ ماذا جنيت؟ حتى تمطريني بمثل هذه الآلام والمصائب؟ أولاً سرقت مني قلبي في النوم- ثم في يقظتي جمعت علي أكواماً من المآسي بالآلاف؟ ولما كنت أنت سبب هذا المصاب فإليك أنت اتجهت بآمال ضالة لكي أجد علاجا لألمي! وكيف لي أن أعلم بأن دوائي هو نفيي من أرضي وبيتي؟ ألم يكفك أني حرمت من حبيبي؟ وإلى هذا تريدين إضافة آلام النفي؟ هل كل هذا هو المساعدة التي قدمتها لي؟ أن تذيبي حياتي كلها هكذا- إني أدعو ربي القدير أن يجيرني من عدائك لي! ولكن أتوسل إليك ألا تلقي في دربي مزيداً من مثل هذه الأحابيل الخادعة، وألا تدفعي كأس صبري بعنف! لقد وعدتني أنه بعد هذا سوف تتحقق لي أمنيتي، وأنني

سوف أجد منية قلبي ، إنني سعيدة بهذا الوعد ، أطمئنك مؤكدة ذلك، ولكن إذا كان من المفروض أنها ستكون سعادة، فلم أنا مهتمة؟" .

وهكذا خاطبت السماوات، حتى قاطعتها أصوات نداء الحرس معلنين عن وصولهم إلى العاصمة، وبدت ضفاف نهر النيل على مرأى منهم، حيث تجمع ألوف من الأشخاص المحيين، من راكبين وراجلين، ينتظرون وصول الموكب لتحيته.

وقام العزيز باستعراض عادة متوارثة وهي أن يمطروا محفة العروس بالذهب والفضة واللآلئ والجوهرات- إغداقاً مسرفاً إلى أن تتوارى المركبة عن الأنظار، وسط هذا الشلال من الثروة. وإزاء هذا لم يبق لحوافر الخيول أرضاً خالية تدوس عليها ، فصارت حوافرها تصطك على قطع الياقوت المتناثرة. وأما الجموع الحاشدة فكانت أيضاً وهي محاذية لضفة النهر، ترمي بقطع الذهب والحجارة الكريمة على العروس.

وتقدم الجمع الآن في أبهة ملكية إلى مقر السعادة، إلى القصر- عش السعادة الأرضية، المبلط بصور الشموس والأقمار، وفي الوسط نُصب عرش ملكي رائع، أتقنه المهندس وتفنن في تجميله إلى درجة أنه وضع فيه كثيراً من قطع الذهب والجوهرات ثقيلة الوزن. وهناك أُجلست زليخا ، مثل جوهرة وضعت على الذهب. ولكن الحزن العنيد الذي يعتمل في صدرها جعل من هذا العرش الذهبي جحيماً بالنسبة لها . وغدا تاجها المرصع كثقل صخرة على جبينها ، بينما تلك الحجارة الكريمة التي نثرت عليها بدت لها كوابلٍ من المحن! وفي مثل ساحة المعركة هذه حيث تُعَدُّ الرؤوس الكثيرة لحتفها ، منذا الذي يرغب في مثل هذا التاج على رأسه؟

١٦- تمضية زليخا العمر في مفارقة يوسف عليه السلام وتلهفها وتأسفها مدى الليالي والأيام

حينما يجد القلب، أي قلب، طمأنينته مع معشوقه، فكيف له أن يقبل بأن يتحد مع شخص آخر؟ هل حصل ورأيت مرة فراشة تطير إلى الشمس، ومناها كله محصور في لهيب الشمعة؟ إنه لمن غير المجدي أن تصنع آلافاً من الأغصان المعطرة أمام العندليب لأنه لايريد إلا أنفاس الوردة البلسمية، وعندما تداعب حرارة الشمس اللطيفة زنبقة الماء، فهل تبدي اهتماماً بالقمر؟ وعندما تعطش نفس إلى جرعة ماء عذب، فلن يروي ظمأها شراب مسكر!

في ذلك الرياش المترف تمتعت زليخا بكل جوانب الحياة الملكية المترفة.

كان العزيز عبداً لها، ولكنها لم تطلب منه شيئاً. وكان خدمها سريعي التلبية لما تريد، لا يملون أو يرتاحون من خدمتها، بل كانوا في لهفة لينفذوا ما تأمر به. كان لها وصفاء يرتدون الكتان الرقيق، ذوو عود نحيل كعود قصب السكر، وعبيد سود كأنهم صيغوا من العنبر، في وجوههم براءة ملائكة الأرض، فيهم حماس وإخلاص لخدمة قسم الحريم. أما نبيلات المدينة، من كن في مثل سنها، فقد كن فاتنات أنيقات وسعيدات بأن يبقين معها. وكانت قاعة الاستقبال الكبيرة التابعة لها مفتوحة للصديقات والغريبات على السواء، اللواتي جلسن على الطنافس ابتهاجاً. ورسمت زليخا على شفتيها ابتسامة أخفت بها حزنها متظاهرة بأنها منغمسة في الحديث معهن، ولكن قلبها ونفسها كانا مع الحبيب، مع الوحيد الذي شاركها أفراحها وآلامها، ولذا لم يكن لها علائق وثيقة بأحد من الحضور. كانت تفعل هذا من الصباح حتى المساء. ولكن ما إن يحل الظلام ويلقي بغلالته السوداء على الكون، حتى تخلد زليخا

إلى الراحة في وحدة خلف الستائر، وبعين فكرها تجالس حبيبها خلسة على الأريكة الناعمة الملساء. كانت تنحني أمامه، تحدثه عن أساها، تنقر على أوتار معزف معاناتها، وتطلق بقوة تأوهاتها المجنونة:

"يا منى القلب، لقد قلت لي بأن مصر وطنك، وأن لقبك هو العزيز، وها أنذي في مصر، منفية منبوذة، زاهدة في غنى مجتمعك، متسائلة إلى متى سأبقى أحترق في شعلة الآلام؟

أقبل إلي! كن موضع اعتزاز حديقة قلبي، كن البلسم الشافي لنفسي الجريحة، فإذا يئست من وجود معشوقي، فإن الرسول الملائكي من العالم غير المرئي سوف يحفظ أمنيتي – وهي أن يبقيني حية – وأن ينفض غبار الخوف عن ثوبي. إن سنا جمالك الذي يضيء جوانحي يعطيني الثقة بأنني سوف أراك ثانية. مع أن عيني غارقتان بالدموع فإنهما تبحثان في كل ناحية عن وصولك. وكم ستكون تلك اللحظة سعيدة، عندما تلوح أمام عيني مثل القمر المشرق!

إني إذا لمحت منك لمحة بارقة، فلن يكون لي وجود، وسوف يذهب كل أثر لأنانيتي، وسوف أصبح بكلي غارقة في نشوة. لن تعود نفسي كما كانت، تلك التي تسكن جسدي، فإن الروح التي تحرك جسدي سوف تكون لك، وكل فكرة عن الشخصية والأنا سوف ترمى جانباً، وعندما أبحث عن نفسي لا أجد سواك أعز منها، إنك أملي الوحيد في هذا العالم وفي العالم الآخر، وعندما أجدك، فلماذا أبحث عن نفسي؟

وهكذا صارت تحول ليلها إلى فجر على نحو بطيء، دون أن تقطع مناجاتها لنفسها، وعندما يبدو لها ضوء النهار في نهاية الأمر، تتوجه بهذه الكلمات إلى نسيم الفجر قائلة:

"أيتها النسمات العزيزات! إنك تهبّين وقت السحر وتنشرين معك روائح المسك على صدر الياسمين وتجعلين الغدائر الندية (للمكحلة الحدقية)[1] تداعب تويجاتها، يا من تحركين الأوراق الصغيرة المتدلية كالأجراس من أغصانها، وتجعلين الأشجار تترنح بسيقانها الثابتة الجذور في الأرض، يا من تحملين الرسائل بين العاشق والمعشوق، وتهدئين من أحزان قلوبهم الجريحة! ليس في هذا العالم أحد أكثر مني بؤساً وشقاء، اجلبي السلوان إلى قلبي الحزين، وساعديني لكي أحتمل ألمي المرير! ليس هناك من مكان في هذه الدنيا تعجزين عن اختراقه، ولاحتى الباب الحديدي يستطيع أن يبقيك خارجه — وفوق كل هذا، ولو كان محكم الإغلاق فإنك ببساطة تدخلين من النافذة.

أشفقي علي لأنني ضللت طريقي! بادري بالبحث عن حبيبي من أجلي، اذهبي إلى أماكن الملوك، واستشعري لي في كل مدينة عن ملك أحلامي الجميل. ومرّي عبر كل حديقة مزهرة، وتجوّلي فوق كل جدول، فربما يصدف أن تجديه في النهاية فوق تلك السروة الأخّاذة".

كان هذا دأبها كل يوم، تخاطب نسائم الصباح إلى أن ترتفع شمس النهار بعد ذلك، فتقوم زليخا الساطعة كضوء الشمس، وتجلس مع أترابها المجتمعات، وتستمع بصحبتهن كما كانت تفعل في اليوم السابق.

ولشهور عدة، بل لسنوات، مرت أيامها ولياليها جافة على هذه الشاكلة. وإذا حل بها التعب من البقاء داخل المنزل، فربما تخرج للتنزه، بصدر ممتلئ بالآهات والزفرات. فتبث الورود حبها المكين والألم الذي يعتلج في قلبها. وأحياناً تسرع كجدول رافد يصب في نهر النيل لكي تصب فيه آلامها، أو

---

[1] المكحلة الحدقية: نوع من الزهور.

ربما توقف فجأة وتثبت عينيها على الطريق متوقعة أن ترى على قارعتها أحداً، وهي تتساءل من أية وجهة سيأتي الحبيب يا ترى؟ ومن أي أفق يظهر كشمس مشرقة أو قمر منير؟

والآن، يا جامي، دعنا نَعُدْ إلى أرض كنعان، لنجلب معنا قمر كنعان. وأما زليخا فلندعها في غمرة قلبها المتلهف، وعينيها المليئتين بالأمل المرتقب مثبتتين على الطريق الملكية. إن ما تكابده أكبر من أن يوصف أو يحد بحدود! ولكننا سوف نجلب لها اللقاء الشافي بالحبيب – وسوف نمنحها الطمأنينة بكل ما هو رائع لأنها انتظرت كثيراً. . . . ولأنه طال عليها هذا الانتظار . . . . !

١٧- بداية حسد إخوة يوسف، رؤياه أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين

سعيد هو الإنسان الذي يهرب من عبودية المظاهر ويغمض عينيه عن نفوذ شعوذتها الآسرة! وفي هذه الحالة قد تكون عيناه غارقتين في رقاد لذيذ، في حين يكون قلبه دائم المراقبة، ومنذا الذي رأى نائماً بهذا الصحو؟ عيناه مغمضتان عن هذا العالم الزائل، ومفتوحتان من الداخل لرؤية أسرار العالم العلوي.

في إحدى الليالي، كان يوسف قد أسند رأسه إلى وسادته لينام. وكان يعقوب عليه السلام الذي يعزه مثل بؤبؤ عينه، يسهر عليه، وحينما غرق في النوم، بدت على شفتيه الورديتين كالعقيق ابتسامة رائعة، الأمر الذي جعل قلب يعقوب يمتلئ خشية من شر مرتقب. ! ! ولما فتح الطفل عينيه المخضلتين بأثر النوم سأله أبوه: "قل لي، يا من حلاوته أخزت الحزي نفسه، ما الذي كنت تفكر فيه قبل قليل وجعلك تبتسم هكذا؟" أجاب يوسف: ﴿يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾

فصاح يعقوب: "كفى! يا بني لا تقصص رؤياك على أحد! وخاصة إخوتك، فيكيدوا لك لأنهم إذا عرفوا ذلك فسوف يمطرونك بوابل من المصائب في حياتك المقبلة. ألا ترى أنهم ممتلئون غيظاً منك؟ وهذه العلامة الجديدة من التفوق عليهم سوف تصب ناراً على جام حسدهم عليك، لأن تأويل هذه الرؤيا واضحٌ جداً !".

كان هذا أمر والده، ولكن مجرد تنفس نفس ببوح السر يجعل القدر يرمي بعيداً بسلاسل النصيحة الإنسانية. فقد باح يوسف بحلمه إلى شخص واحد، وبعدها سرعان ما وصل الخبر إلى سمع إخوته. وهناك مثل يقول: "كل سر بين ثلاثة أشخاص ليس سراً". والرجل الحكيم أكمل مثله بقوله: "كلمة اثنين تعني شفتين" وكثير من الأسرار التي بمجرد خروجها منهما سببت لقلوب كثير من أصحاب الشجاعة أن تدمى.

وهكذا سمع إخوة يوسف عن حلمه، فاستشاطوا غضباً ومزقوا ثيابهم قهراً صارخين: الله أكبر! ما بال والدنا لا يعرف مصلحته من عدمها؟ أي حد بلغ بالطفولة أن تتمادى؟ عندما يقوم مجرد طفل بقول مثل هذا، وهو ليس أكثر من عالة كسول! وإلى متى يبقى يوسف هذا يلتوي في طريقه إلى كل قلب بأكاذيبه وتعظيمه لنفسه؟

إن هذا العجوز المسكين صار مخدوعاً به، ولا يستطيع أن يفارقه: إنه يفضله علينا. لقد ضخم والده فكرته عنه، فلم يعد يرغب برفقة الشرفاء التي حاز عليها من قبل، لقد وضع في رأسه فكرة وهي إجبارنا على أن ننحني له ونعفر جباهنا بالتراب- نحن ذوو النسب الطاهر- وهذا ليس كل شيء، فوالدنا وأمنا ينحنون له أيضاً! يجب ألا نتساهل أمام هذا الادعاء فيزداد الأمر سوءاً! إننا نحن

الأصدقاء الصادقون المخلصون لوالدنا، وليس يوسف، نحن الذين نرعى أغنامه طيلة النهار في السهل والمرعى، وفي الليل نحرس له بيته. نحن الذين نحترمه أمام أصدقائه، والذين لنا أذرع قوية تدفع عنه الأعداء. فماذا يعني هذا إلا خيانة من جانب يوسف، بتفضيل والدنا إياه علينا ؟ تعالوا إذاً، نفكر بطريقة نخلص بها أنفسنا منه مادام هناك متسع من الوقت".

ورتب الإخوة اجتماعاً لحبك مؤامرة ضد أخيهم يوسف. فقال أحدهم مبتدئاً:

"بما أن يوسف أدمى قلوبنا بالحسد، فما علينا إلا أن نحتال لسفك دمه مقابل ذلك. وإذا كان من فرصة لقتل العدو، فانتهزوها، فالأموات لا يتكلمون!". واحتج آخر قائلاً:

"إن التفكير بقتل إنسان بريء خطيئة. حتماً يجب أن نعامله بقسوة ولكن لن نغلو إلى حد القتل. أنا أقترح أن نبعده في وهد صحراوي منعزل لا يسكنه غير الوحوش الضارية، وحيث يكون شرابه الوحيد دموع الأسى، ومكان راحته الوحيد سريراً من الشوك. وبعد فترة قصيرة سوف يموت في مثل هذا المكان ميتة طبيعية! ولن تكون سيوفنا ملطخة بدمائه، وبذلك سوف نتحرر من حيله الكاذبة". وقال ثالث:

"لا، إن هذا سيكون صيغة أخرى من صيغ القتل وأشد قسوة من الأولى. وأظن أن أحسن فكرة أن نبحث هنا وهناك حتى نجد بئراً مظلمة ومنعزلة ثم نلقيه فيها، دعونا نقذفه من أوج كبريائه إلى حضيض حفرة الخزي والعار، وبعدها ربما إذا مرت قافلة، فسوف يُدلي أحد المارة بدلوه ويسحب الولد بدل الماء. وبعد ذلك إما أن يتبناه كولد له أو يأخذه كرقيق، وفي كلتا الحالتين سوف يؤخذ بعيداً . . . .

وسوف تنقطع علاقته بيننا، دون أن نكون قد قمنا بفعل أي أذى!".

واتفق الإخوة على تنفيذ الخطة في اليوم التالي، وأن يخدعوا والدهم عنه نفاقاً. وهكذا غاصت رؤوسهم في بئر النكبة والكارثة دون أن يلقوا بالاً لعمق خيانتهم.

١٨-ذهاب إخوة يوسف إلى أبيهم وطلبهم أخذ يوسف معهم إلى الصحراء

إنهم قلة من الرجال أولئك الأفاضل ذوو الشهامة والمروءة الذين هربوا عن شرور النفس، وانزووا بعيداً في زاوية التخلي عن حظوظها، وتحرروا من قيود الطبيعة وشَرَك الطمع، وصاروا كالتراب على طريق الألم والحب. وبذلك لم يتسببوا في أذية لأحد، ولم يكونوا موضع شبهة، ولم يستطع أحد أن ينحي عليهم بلائمة. لقد انسجموا مع تنافر الأمور في هذه الدنيا وتحملوا بصبر مايقع عليهم من مصائب. إنهم ينامون بهدوء وسكينة كل ليلة، متجردين خالين من أية بغضاء أو منازعة، وينهضون مع كل فجر وهم في حال من الراحة التامة التي ناموا عليها.

في اليوم التالي كان هؤلاء الإخوة الحساد مسرورين بما عقدوا العزم عليه، وبألسنتهم الزلقة والمليئة بالتودد وقلوبهم المليئة بالبغضاء –كالذئاب في ثياب حملان– اتجهوا لكي يحدثوا أباهم. وحين قابلوه ارتدوا ثياب الطهارة وركعوا باحترام أمامه، ثم أطلقوا للخداع والنفاق عنانهما وبدأوا حديثاً منوعاً يلمس كافة جوانب أي موضوع يحضرهم. وأخيراً قالوا: "لقد سئمنا البقاء داخل المنزل، وغداً إذا سمحت لنا، نود لو ننطلق إلى القرية.

وبما أن أخانا يوسف الصغير السن– وهو نور عيوننا جميعاً– لم ير مطلقاً سهلاً منبسطاً، فهل ترى أن نذهب به معنا ؟ وسوف نكون شديدي الفخر إذا أتى معنا ! وبعد هذا كله، إنه دائماً سجين داخل البيت ليلاً ونهاراً، فدعه يذهب معنا حين نرعى الأغنام وسوف يلعب ويفرح قلبه. سوف نركض معه في

السهل، ونصعد التلال، وسوف نحلب الماعز مع بعضنا بعضاً. ولا نظنه إلا متلهفاً لأن يذوق معنا الحليب الطازج من المعز، وسوف يطفُر مَرَحاً في السهل الأخضر ويمتع نفسه كثيراً إلى أن يشتاق إلى العودة إلى البيت".

وتردد يعقوب في بداية الأمر، وقال: كيف أترككم تأخذونه؟ لسوف أبقى يساورني القلق حياله، فربما تنسون أن تنتبهوا إليه فيأتي في ذلك السهل الموحش ذئب كبير قد يمزق أعضاءه اللطيفة إرباً بمخالبه الحادة- فكيف أسلم قرة عيني إلى التمزيق؟".

ولكن هؤلاء الأشرار المخادعون بدأ يكررون خداعهم: "ما بالك؟ وهل تظننا بهذا الضعف، نحن العشرة، حتى نعجز عن دفع ذئب؟ أبداً، وحتى لو كان أسداً آكلاً للحوم البشر، فلن يكون مشقة دفعه وطرده عنا إلا كطرد ثعلب حقير". وبعد ذلك، لم يعد يعقوب يفوه باعتراضات أُخَر. بل تركهم يأخذون يوسف معهم إلى الحقول. وهكذا كأنه فتح بقبوله هذا الباب للتعاسة وسوء الحظ!

١٩- أخذ الإخوة يوسف من عند أبيهم وحفرهم بئر الضلالة بخيانتهم

ولما عُهد يوسف إلى هؤلاء الوحوش الشريرة، كادت السماء تبكي لأن الذئاب صارت تتعهد الحمل. وبقي الإخوة أمناء مادامت عين والدهم عليهم، إذ بدأوا يتنافسون الواحد تلو الآخر في إظهار عواطف المودة نحوه: فحمله الأول على ظهره، وجاء الثاني فحمله مضموماً إلى صدره. ولكن ما كادوا يصلون إلى طرق ملتوية في البستان حتى شرعوا ينفثون أحقادهم عليه. فمن أكتاف الشفقة قُذف به إلى وسط الصخور والنبات الشائك، وأمروه أن يمشي بقدمين حافيتين بين الشجيرات اليابسة حتى تحزَ

ويمزق أخمص قدميه اللطيفتين تلك الأشواك الحادة والحصى، ملونة بدم وردي ذلك الجلد الذي كأنه صيغ من تويج الزهور.

كان إذا تلكأ في خطوه إلى الخلف، بدأت تلك الأيدي الخشنة الوغدة ترضّ وجهه بالصفعات، وإذا تقدم إلى الأمام وقعت الضربات على رقبته من الخلف، وإذا مشى إلى جانب الطريق بدأ إخوته يمطرونه بوابل من اللكمات من جميع الجهات. جعل الله سيف العدالة يقطع بقوة هذه الأيدي التي جرؤت على ضرب هذا القمر الأخاذ! وكان إذا وقع على أقدامهم باكياً، فإن أحدهم يضع قدمه بكل بساطة على رأسه ويرد على توسلات الطفل ذي الصوت المتناغم بسخرية رافضة!

وأخيراً وحين يئس من تليين قلوبهم القاسية، انهار وسقط على التراب الذي تبلل من دمائه ودموعه، وصار ينوح بقلب كسير، وأعطى متنفساً لآلامه وهو يقول:

"أبتاه! أين أنت الآن؟ لماذا غيرت مواثيقك؟ تعال وانظر إلى أبناء محظياتك الذين حادوا عن جادة العقل والدين، تعال انظر إلى ابنك الأثير، مداساً بأقدام هذه المخلوقات الحاسدة! إنه أنت الذي عرضتني لهذه الإهانة، حين قذفت بالغزال إلى مخالب الذئاب الخفية! انظر إلى حقيقة مشاعرهم نحو ابنك العزيز، وكيف بادلوك على فضلك عليهم بهذا!

إن الوردة التي تفتحت في تربة روحك وتعهدتها بأمطار لطفك قد ذبلت الآن عطشاً بعد أن فقدت لونها ولمعانها. وهذا البرعم الأخضر الغض، الذي غُذي في الجنة ثم غَرَسَتَهُ في حديقة الحياة قد امتهنته رياح الظلم فجاءت الأشواك والطحالب ساعية للتفوق عليها!" واستمرت هذه الأفكار في نفس يوسف على مدى مسافة ثلاثة فراسخ — وهو ما فتئ يلتمس السلام من إخوته ذوي القلوب المتحجرة

الذين عقدوا العزم على العداء- حتّى وصلوا أخيراً إلى بئر ووقفوا ليستريحوا عندها . كانت البئر حفرة مظلمة كئيبة، شبيهة بقلب طاغية، وكان النظر إلى ظلامها كافياً لأن يطيش بالعقل من الخوف. فوهتها مفتوحة كفم متثائب لفكي تنين مفترس، وجوفها كقلب زبانية مملوء بالحيات. وبداخلها هوة محفورة من طين موحل نتن، هواؤها فاسد ومياهها آسنة.

كانت هذه الحفرة الكريهة هي كل ما يحتاجه هؤلاء الإخوة لكي يتخلصوا من الصبي. وعاود الصبي يطلق صرخات اليأس، صرخات كانت حقاً مثيرة للإشفاق إلى حد تلين معه الصخور القاسية، ولكن، هل أحسوا بها ؟ أبداً، فكلما ازدادت أنات الحزن في صراخه ازدادت قلوبهم قسوةً!

كيف لي أن أصف كل هذه القسوة؟ إن قلبي ليرفض أن يتفوه بها ويصفها . فإن هاتين الذراعين اللطيفتين كُبّلتا إلى الخلف بحبلٍ غليظ من صوف ماعز خشن، ثم ربطوا وسطه النحيل بقسوة، وبعدها مزقوا قميصه وتركوه كزهرة ظهرت من برعمها عارية. ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يقتطعون لأنفسهم معطفاً من العار عليهم أن يلبسوه حتّى يوم القيامة!

وبعدها أدلوا بيوسف عميقاً داخل البئر حتّى وصلت المياه فيها إلى وسطه. ومن حسن الحظ أنه كانت هناك صخرة ناتئة فوق سطح الماء استطاع يوسف أن يجلس عليها . وإنها لصخرة محظوظة أن تقع عليها مثل هذه الجوهرة النفيسة! !وجاء جبريل الأمين من سدرة المنتهى، وقال ليوسف:

"أيها الطفل المسكين المنبوذ، إن المولى أخبرني أن أقول لك بأن هذه العصبة من الشريرين الخونة، سوف يعودون إليك بعيون خجلى كسيرة إلى الأرض من الذل، حاملين رؤوسهم من العار بصورة أشد

بؤساً وهواناً من اللحظة التي أنت عليها الآن. وسوف تعدد لهم كل الذنوب والأفعال الشائنة التي فعلوها معك، ودون أن يتوقعوا ذلك" .

وهدأت كلمات الملاك من روع يوسف، فبدت الصخرة التي يجلس عليها وكأنها عرش ملك. وظل هذا الروح المخلص، جبريل عليه السلام، نعم الرفيق الذي يعزي روحه الحزينة.

واستضاءت جوانب البئر بنور وجه يوسف، وهذا ما جعل الزواحف المؤذية تنكص على أعقابها إلى مخابئها، والفضل لشفتيه الشبيهتين بالألماس اللتين حولتا الماء الآسن إلى ماء عذب كالعسل، ونَشْرُ خصلات شعره المسكي أذهب بكل الروائح الكريهة التي كانت تملأ أجواءها .

٢٠- وصول مسافرين إلى البئر وإخراج يوسف وإضاءة العالم بشمس جماله

كانت قافلةً ذات حظ عظيم تلك التي توقفت هناك لتمتاح الماء، ولما قام أحد الماتحين بسحب الدلو من البئر، إذا به يرى داخلها جمالاً أخاذاً كالقمر في ليلة التمام!

لقد مكث هذا القمر ثلاثة أيام كاملة قابعاً داخل البئر. وفي اليوم الرابع مرت هذه القافلة من أهل مدين في طريقها إلى مصر. وكان أهلها قد ضلوا الطريق فقرروا أن يعرّوا ظهور رواحلهم من الأحمال ويخيموا حول مورد ماء. وإنها لغلطة سعيدة، تلك التي قادتهم إلى ذلك المَعْلَم الذي يوصلهم إلى يوسف!

إن أول من وصل إلى تلك البئر كان بحق رجلاً اختار القدرُ له كل الخير، و كالخضر عليه السلام على حافة ينبوع ماء الحياة، أدلى بدلوه داخل ذلك المهوى المظلم. والآن قال الملاك جبريل ليوسف عليه السلام: "أقبل وانثر بضع قطرات من ماء العاطفة النقية من أجل العطاش من المخلوقات! وقف داخل الدلو، وعندما ترتفع فوق حافة البئر فسوف تملأ السماء ضياءً مرة أخرى!" .

وقفز يوسف من فوق الصخرة وتسلق إلى داخل الدلو، وسحب الماتح الحبل بكل قوته وقال: ياالثقل هذا الدلو! يجب أن يكون فيه شيئاً غير الماء". ولما بدا له ذلك النجم السماوي المتألق صاح الرجل: "ياللحظ السعيد الذي أرسل إليّ هذا القمر المنير من أعماق بئر مظلمة!".

ولم يخبر أفراد قافلته بما وجد، بل أخذ يوسف إلى خيمته وبصورة سرية عهد به إلى مرافقيه.

وفي هذه الأثناء، كان إخوة يوسف يحومون حول منطقة مجاورة للبئر لكي يتمكنوا من أن يروا ما الذي سينتج عن كل هذا. ولما رأوا القافلة، اقتربوا من البئر ونادوا على يوسف خلسة، ولكنهم لم يسمعوا سوى صدى أصواتهم، وبعدها ذهبوا إلى المخيم لكي يبحثوا عن أخيهم، وبعد بحث غير مجدٍ، لمحوه عن بُعد. وهنا أمسكوا به وقالوا لأهل القافلة:

"هذا الصبي أحد عبيدنا، وقد أبق عن أسياده. إنه كسول في عمله، كثير المحاولة للهرب. وكنا نفكر في بيعه، مع أنه ولد عند أهل بيتنا. وفي اللحظة التي يبدأ فيها العبد بخدمة سيئة فإنه يصبح أكثر إزعاجاً من إبقائه، ولابد من التخلص منه، ولو من دون مقابل، فنرجو ألا تحاولوا إصلاحه؟"

وقام الرجل الطيب الذي أخرج يوسف من البئر بشراء يوسف بدراهم معدودات، واسمه "مالك" فحصل على يوسف ببضع قطع نحاسية. ثم قامت القافلة بتحميل متاعها وتابعت طريقها نحو مصر.

كم هي صفقة خاسرة أن تبيع روحاً بريئة وكأنها سلعة- فكيف إذا كانت مثل هذه الروح الثمينة-بثمن بخس؟! مع أن مجرد نظرة واحدة من يوسف هي هدية ثمينة تعادل مصر كلها بما فيها! ومجرد كلمة منه تساوي حياة كاملة.

ولكن يعقوب وحده كان يعرف ماذا يساوي، وزليخا كانت الوحيدة القادرة على دفع هذه القيمة. وهكذا بدد الغافلون، إخوة يوسف، كنوز سعادتهم وعادوا ومعهم بضع دراهم زائفة!

٢١- وصول يوسف عليه السلام إلى نهر النيل، اغتساله وتوجهه إلى بلاط ملك مصر

كان مالك شديد الإعجاب بجمال هذا الشاب الأخاذ، بعد أن وصل إليه هذا الكنز هكذا بسهولة، حتى إن قدميه صارتا تلامسان الأرض بصعوبة من شدة الإعجاب بالنفس. وقد استمد هذا الإعجاب من مجرد علاقته الأولى بيوسف، وحتى إنه أتم رحلته الطويلة إلى مصر بنصف المدة التي عادة ما تقطعها القوافل، من جراء هذا الشاب المبارك. وسرعان ما سرى خبر الوصول، بأن مالكاً قد عاد ومعه عبد كنعاني، قمر ساطع في أوج الجمال، ومليك مهيب على عرش المجد. وأمام جميع العيون الكثيرة بدا كأجمل ما خلق الله من صور الحسن في معارض الكون الجمالية. وشاع الخبر وذاع في مصر ووصل خبره إلى ملك مصر، فثارت في نفسه ثائرة الحسد وقال في نفسه: "هذا مستحيل، إن مصر هي وحدها أرض حدائق الجمال بفتياتها الزاهرات التي تُخجل ورود حدائق الجنان!". وأمر وزيره أن يسارع لقاء القافلة لكي يشاهد بنفسه ذلك الفتى الذي وصف بأنه ذو وجه قمري، بأم عينه ويجلبه معه إلى البلاط. وأطاع الوزير الأمر في الحال. وما إن آنس من يوسف لمحة حتى ذُهل وصُعق وكاد يسجد على الأرض أمام جماله الأخاذ، لولا أن يوسف أوقفه قائلاً:

"لا تنحنِ في حياتك لأي مخلوق! إلا للذي وضعك تحت إمرته وتصرفه وأجبرك على ذلك!".

وبعدها طلب الوزير من مالك أن يجلب الفتى الصغير إلى قصر ملك العالم، ولكن مالكاً طلب مهلة بضعة أيام حتى يرتاحوا من عناء الرحلة الطويلة، فقبل الوزير بهذا وذهب ليخبر الملك.

وما كان باستطاعته أن يصف سوى لمحة من جمال يوسف، ولكن ما قاله كان كافياً لأن يجعل الملك شديد الحماس لرؤيته واستقباله، فأمر أن تُختار آلاف من الشابات الجميلات والشباب من حديقة الجمال لكي تقف أمام المشترين في السوق. وتمنى لو أن مثل هذه التظاهرة الجمالية والمنافسة تكون مقللة من جمال يوسف حتى يفوز به وحده، ولو أن يوسف كان الشمس بعينها فإن هذا على الأقل سيخفف من حرارة حماس مشتريه.

وحل اليوم الموعود، وحان شروق الشمس على صفحة مياه النيل، فاتخذ يوسف طريقه نحو ضفة النهر، وهناك خلع ملابسه القديمة وبسرعة لف حول وسطه مئزراً، ووقف منتصباً كشجرة سرو على شاطئ النيل، ولابد أن السماء تأوهت حسداً على أن هذا النهر كان محظوظاً حيث استطاع أن يقبل قدميه.

وبدأ يوسف بغسل أعضائه أولاً، ثم غاص بعيداً عن الضفة ليظهر وسط التيار سابحاً فيه. واختفى عُريه اللامع، كزهرة لوتس تحت المياه المتلاطمة، التي بدأت تجيش بالحياة وتتلاطم حينما دخل فيها. وعاد إلى الشاطئ ليرتدي ثيابه النظيفة التي حملها له أحد الخدم. كانت عبارة عن سترة بيضاء بلون الياسمين، وجركينة[١٢] مطرزة بآلاف من التصاميم رفيعة التنميق، وعلى جبينه تدلت عصابة ذهبية أبدت وراءها قمراً مضيئاً، وحول وسطه وضع حزاماً مرصعاً. وتدلت خصلتان من شعره كانتا تتوسان بجرية تأسران معها القلوب، وتعطران أجواء مصر بعبيرهما.

---

[١٢]) الجركينة: سترة طويلة دون أكمام.

وهكذا ارتدى ثيابه متزيناً، وأخذ مكانه في المحفة، وانطلق نحو القصر. كان الملك قد أمر أن تُنصب منصة خارج القصر وأن يصطف أمامها حشد من المخلوقات الجميلة في انتظار ظهور يوسف، وأخيراً وضعت المحفة على المنصة فثبتت العيون جميعها عليها وصدف أن الشمس يومها كانت محتجبة خلف غمامة سوداء. فقال مالك ليوسف:

"إنك أنت الشمس اليوم، هيا اسحب الغلالة عن وجهك وبارك الوجود بنورك!".

وحينما سحب يوسف الغطاء عن وجهه، تطاير شعاع نوره بقوة على الجمع الحاشد هناك، وقد تخيلوا أولاً أن الشمس تطلع من خلف الغمامة السوداء، ثم تبين لهم بأن هذا الضياء إنما كان يشع من وجه يوسف، وهنا صفقوا بأيديهم من شدة اندهاشهم وصاحوا: "الله أكبر! أي طالع سعد هذا الذي أخجل الشمس والقمر؟"ومع سقوط أهلة أصنام مصر، صار يوسف القرص الذي تُنقش عليه الأسماء، لأنه إذا ما أشرقت الشمس، فما تجدي نجمة ضئيلة هناك؟ وماذا تفعل سوى أن تعاود الاختباء؟

٢٢- مجيء زليخا إلى بلاط الملك ورؤيتها شموع جمال يوسف وتعرفها إليه

في هذه الأثناء لم تكن زليخا تدرك كم أصبحت قليلة تلك المراحل التي تبعدها عن يوسف. ومع ذلك أحست بحضور عجيب، وتحرّق غريب يكمن في قلبها لم تجد له تفسيراً، فحاولت عبثاً أن تهدئه. وبعدها ذهبت إلى الريف في محاولة لتسرّي عن نفسها وتتخلص من أشواقها، ولكن حصل العكس! فبعد عدة أيام، ازداد يأسها وألمها وأصبحا أشد من ذي قبل.

وبدا أن بقاءها في الريف جعل الأمور تزداد سوءاً، ولذلك عقدت العزم على العودة إلى المدينة في محفتها. والآن وعلى طريقها إلى بيتها كان عليها أن تمر من الساحة المواجهة للقصر الملكي. فإذا بها ترى

الجموع مزدحمة في ذلك المكان، فسألت عن هذا الضجيج الذي سمعته قائلة: ما هذا الهرج والمرج؟ فكان الرد من أحد المارة:

"إنه بسبب شخص واحد، محسوب على الحظ العظيم، مملوك كنعاني سوف يعرض هنا للبيع – أو على الأصح شمس مضيئة، سيد قادم من مملكة الجمال".

وسحبت زليخا الستارة عن نافذة محفتها، فوقع بصرها على ذلك الشاب، فعرفته على الفور. وإذا بها تطلق صرخة مروعة ثم تسقط على حجر مربيتها مغمياً عليها، فسارعت خادماتها بأخذها إلى البيت. وبعد أن مضت فترة على بقائها في البيت. إذا بها تستعيد وعيها، فسألتها وصيفتها قائلة: "يانور عيني، لماذا أطلقت هذه الصيحة المريرة من أعماق قلبٍ محترق؟ ولماذا سقطت فاقدة الوعي؟" فأجابت زليخا: "ماذا يمكن أن أقول، أيتها الأم العزيزة؟ كل ما سأشرحه لك مرهون بأن يعيد لي جميع أحزاني وهمومي، إن هذا المملوك الذي رأيته وسط الجموع، وسمعت الثناء عليه على ألسنة الناس في المدينة، ليس إلا محور تفكيري جميعه، وأرجو أن تكون روحي فداء له، إنه حبيب القلب، إن وجهه البهيج هو الذي سلب لبي هدوءه وصفاءه. وبسببه يرتعد جسمي بالحمى، ويتقد قلبي باللهيب، وعيناي تغرقان بالدموع. إنه عشقي إياه الذي رماني في هذا المنفى البائس، وأبعدني عن بيتي ووطني. إنه سبب آلامي التي رأيتني أقاسيها طيلة هذه السنين، إنه سبب كل متاعبي في هذا العالم. أجل كل هذا شوقاً إلى رؤية وجهه وإطلالته المبهجة، ولكن هذا العبء أصبح الآن أكثر ثقلاً من جبل، لأنني لا أستطيع أن أرى كيف ستكون نهاية هذه القصة؟ وأي بيت سيحكم هذا القمر؟ وأية غرفة ستضاء بنوره المشع؟ أية أعين سيجعلها تضيئ – أيّ بيت سوف يحوله إلى قطعة من الجنة؟ ومن التي ستقبل رحيق شفتيه اللتين

تردّان الروح؟ ومن الذي سيرتاح في ظل تلك السروة الفارعة؟ ومن الذي سيفخر بامتلاك هذه النخلة الفضية؟ وهل ستحقق عودته صفاء ذهني وتمنحني الحظ العظيم- ما هو الجواب يا ترى؟!"

ولما أدركت المربية سبب حماس زليخا، أحست بالآم جمة تستهلكها مثل الفتيلة المشتعلة في الشمعة. فشرعت تبكي وتقول لزليخا، شمعة روحها: لا يجوز لأحد أن يعلم عن هذا العشق الملتهب الذي تقاسينه، ولا عن سهرك الليل، وضناك في النهار. لقد تحملت قدرك بصبر حتى هذه الساعة، وبدءاً من الآن ما عليك إلا أن تجعلي من الصبر همك الأوحد. ومن المؤكد أن إخلاصك هذا سوف تجازَيْن عليه في النهاية إن شاء الله، وسوف تطلع لك الشمس من وراء الغمام الداكن.

٢٣- عرض مالك يوسف للبيع، شراء زليخا ليوسف بأضعاف ثمنه

هل يوجد في الحياة لحظة أجمل من أن يستمتع العاشق بلذة ثمرة الوصال مع معشوقه، بعدما قاساه من آلام الفراق، فيضيئ له سراج المودة؟

عندما عرض يوسف للبيع كان لجماله قوة تأثير عظيمة بحيث كثر المتنافسون عليه من الجموع لكي يشتروه – حتى ولو كانت الكلفة كل ما يملكونه.

وقد سمعتُ حكاية وهي أنه حينما كان يوسف يُعرض للبيع، وكان المصريون يتحرقون شوقاً إليه، وتزايد عدد المشترين فارتفع ثمنه إلى عشرة أمثال وزنه ذهباً- شوهدت عجوز فقيرة تضطرب بسبب ذلك، وإذا بها تجدل خيوطاً صنعت منها حبلاً، ثم جاءت وسط الجمع صائحة وقالت: لتبعه لي أيها الدلّال الكنعاني! لقد تملكني الاضطراب شوقاً إلى هذا الغلام، لذا جدلت عشرة حبال ثمناً له، فخذ مني هذه، وبعه لي! وبلا مناقشة ضع يده في يدي!

فضحك منها الرجل وقال: أيتها البلهاء المعتوهة! لا يليق بك أن تحوزي هذه الدرة اليتيمة، إنه يفوق مئة كنز عند القوم، فمن أنت؟

قالت العجوز: "إنني على يقين من أنه لن يتقدم أحد لشراء الغلام بمثل ما تقدمتُ به، ولكن يكفيني أن يقول الصديق والعدو: إن هذه المرأة كانت يوماً من مشتريه!"[١٣].

وصاح مناد في المدينة من كل حدب وصوب:

"ألا من يشتري شاباً لا عيب فيه؟ خداه فجر الجمال، وشفتاه من عقيق مناجم المجد، وجهه المضيء يعكس كمال شخصيته، وصفات النبل والفضيلة تكمن في صدره. لسانه لا ينطق إلا بالحق، ولا يعرف الكلام الملتوي".

وكان أولَ من بدأ المزاد رجلٌ قدم كيساً مملوءاً بآلاف القطع من الذهب الخالص، ثم جاء المشترون يزيد كل منهم على الآخر في الثمن حتى ارتفع إلى مئة كيس من الذهب. واقترح أحد الأغنياء أن يشتري يوسف بما يزنه من المسك الخالص، وقدم آخر لآلئ ومجوهرات بدل المسك، وهكذا استمر المزاد الذي كان فيه كل أنواع الأشياء الثمينة التي بدأت ترفع السعر عالياً. لكن زليخا بدأت تعمل بدهاء، إذ قامت بعمل مفاجئ بأن ضاعفت فيه أعلى سعر وصل إليه المزاد، أسكت جميع المزايدين.

ثم طلبت من زوجها عزيز مصر، أن يدفع لمالك المبلغ الذي وعده به، فأجابها بأسى:

"واأسفاه! إن الثروة التي أملكها في الخزانة — من ذهب ومجوهرات وعطور — لا تصل قيمتها

---

[١٣] أورد فريد الدين العطار النيسابوري (٥١٢–٦١٨هـ=١١١٩–١٢٢١م) هذه الحكاية في كتابه منطق الطير، ص ٣١٢، ترجمة د. بديع محمد جمعة. بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٩م وهنا نرى جامي يقتبسها منه.

إلى نصف المبلغ المطلوب. فكيف لي أن أعتبر المبلغ كاملاً؟".

وكان لزليخا صندوق مليئ باللآلئ، ومجموعة من الجواهر المتلألئة كالنجوم، وكل واحدة منها تعد ثروة. فردت عليه قائلة: "يا درة روحي، ضع هذه المجوهرات مقابل شرائه وادفعها ثمناً لافتدائه!".

ولكن العزيز أبدى اعتراضاً آخر قائلاً: "ولكن ملك العصر والأوان رغب في أن يكون هذا الشاب اليافع في حوزته، ويريد أن يضعه على رأس وصفائه". . . . .

فأجابت زليخا بإصرار: "اذهب وقل لملك العالم، بعد أن تبدي له احترامك وولاءك، قل له بالحرف الواحد: "إن قلبي لم يرتبط بأي رابط من العاطفة، حيث ليس لدي ولد يكون لي قرة للعين وبهجة للنظر، ولهذا أستجديك أن تشرفني بإشارة قبول منك لكي آخذ هذا الصبي إلى بيتي، ليكون نجماً مضيئاً في فلك حياتي – وليكون ابناً لي، وخادمك المطيع !".

وفعل العزيز ما أشارت به زليخا. وعندما سمع الملك هذا الكلام الجادّ، سمح لنفسه بأن ينجرف مع مثل هذه الحجج الذكية، وبكرم نفس منح هذا المعروف لوزيره الذي توسل به إليه. فأعطى أمره على الفور لكي يحوز على يوسف ويتبناه لنفسه كابن عزيز.

وبذلك استطاعت زليخا أن تتخلص من القيود والآلام التي تعانيها. وانهالت دموع الفرح حبالاً من اللآلئ ملتمعة على أهدابها الطوال. وبعدها مسحت عينيها وقالت لنفسها:

"يا إلهي! أفي حلم أنا أم في يقظة؟ أنائمة أنا أم صاحية؟ عندما أرى حلم روحي يصبح حقيقة. وفي لياليّ السود، هل كنت أجرؤ على التفكير بالظفر بمثل هذا الأمل لأرى فجر هذا اليوم المشرق؟ ولكن في النهاية تلاشت الغمائم لِتُسفِرَ لي عن صباح بشير بالنصر، وأما آلامي المبرحة فقد

وصلت إلى نهايتها في آخر الأمر. والآن، وحين أصبحت رفيقة لهذا المخلوق المجيد، فإني أستطيع أن أزدهي وأرفرف بحظي إلى أعالي السماوات.

وبالأمس القريب، كيف كنت؟ كنت كسمكة اختطفت من الماء، تضرب وتلهث فوق الرمال، والآن أتاها مطر مدرار من غيمه ماطرة بالكرم لكي تعيدها إلى الأمان. أو كمسافر، ضل طريقه في ظلمات ليل بهيم، فأصابه الإعياء ووصل إلى آخر رمق من نفسه، وعلى نحو مفاجئ بزغ له القمر من أعلى الأفق وأراه طريق الهناء.

حمداً لله الذي وضع حداً لعذاب روحي! حين قلب حظي! جعل الله آلاف الأرواح فداءً لذلك الإنسان العظيم الذي جلب إلى ساحة السوق هذه الثروة الخالصة! وماذا يهم أن أفرغت علبة مجوهراتي حين ربحتُ مقابلها ذلك الذي يعادل منجماً كاملاً من الجواهر الثمينة؟ وما قيمة اللؤلؤة حين تُقارن بالروح؟ وبجانب هذا كله، ألا يعود كل ذلك إلى الحبيب؟ وما الذي دفعته؟ إنه لا شيئ سوى صخور رديئة بها حررت حياة إنسان. وبفضل الله، كانت صفقة رابحة رائعة!!"

كانت هذه الأفكار الخفية تعتمل في فكرها، وهي تهمل دموع الفرح من عينيها، فأحياناً تحملق بصمت في وجه يوسف، وهي شديدة السعادة أنها تحررت من الكروب وآلام الفراق– وأحياناً أخر، تسترجع صور ماضيها الأليم، ثم تحس بسعادة غامرة بعد اجتمعت بالحبيب في نهاية الأمر.

٢٤- قصة الفتاة بازغة

أحياناً لا تكون رؤية المعشوق هي الوسيلة الوحيدة التي بها يجد العشق طريقه إلى القلب، وغالباً ما يحدث بأن مثل هذه النعمة تأتي من مجرد سماع كلمة في جمال الحبيب، فصدى كلمة الجمال عندما تدخل إلى الأذن تأخذ بمجامع القلب والروح وتجردهما من الراحة والعقل.

ففي مملكة مصر هذه، عاشت فتاة جميلة تنتمي إلى أسرة عاد العريقة في القدم، تُدعى (بازغة). كانت ابتسامتها اللطيفة شبيهة باللالئ في علبة مجوهرات من العقيق الأحمر، تملأ أرض مصر بمثل حلاوة العسل. هذا الجمال الأنثوي المغوي الذي تغار منه حتى الحوريات، وضع البلد كلها في حالة جيشان. كان هناك رجال عظام يتنهدون من أجلها، وأكثر الشباب وسامة غرقوا في حبها. وكانت ذات ثروة واعتزاز أعطياها مكانة عالية، ولم يبد أن أي شخص كان كفؤاً لها لكي يحظى بحبها، وهي نفسها لم تقرر على أي من المعجبين تلقي بنظرة قبول لتختاره زوجاً. وفي يوم من الأيام سمعت عن أوصاف يوسف، وعلى الفور أحست أن نفسها منجذبة إليه. وكلما ازدادت سماعاً عنه كلما ازدادت رغبتها في أن تراه، وفي النهاية أفرغت خزانة نقودها مما فيها من مال وانطلقت نحو العاصمة لكي تشتري هذا الفتى.

وانتشرت شائعة وصولها في أرجاء المدينة فخلقت جواً من الحركة جديداً. إذاً هنا ضحية جديدة تمنح نفسها ليوسف. ولما علمت بمكان وجوده، توجهت إليه في الحال بقلب مفعم بالسعادة. ولما وقعت عيناها على جمال يفوق الوصف، رأته كاملاً بريئاً من أي عيب، نقياً كالروح ذاتها، ولم تر مثله عين من قبل، أو تسمع به أُذن - إذا بها تسقط مغمى عليها، هاربة من نفسها إلى أفراح عالم علوي

روحي. وبعدها، استفاقت من غيبوبتها وبدأت تطلق لسانها بأسئلة باحثة عن جوهرة ذلك الكنز المخبوء. وهنا صرخت:

يا يوسف، يا تحفة العطاء الإلهي! أي خالق وهبك هذا الجمال الكامل؟ أي مبدع جعل جبينك وضاءً كالشمس؟ وأي مصوّر أبدع صورتك؟ وبأي بوصلة رُسمَ قوس حاجبيك؟ وأي بستاني نصب قامتك عالية كشجرة سرو؟ ومن منحها هذه المهابة الرفيعة؟

واستمع يوسف إلى هذا الوابل من جداول الأسئلة، وحين أجاب عنها كانت كلماته التي تنثال من شفتيه كغذاء لروحها:

"إنني صنيعة الله البارئ العظيم، ولا يعدو كوني في محيطه الواسع سوى قطرة. إن السماء على سعتها ليست إلا نقطة خُطّتْ من قلم الكمال، وإن العالم بأسره ليس سوى برعم من حديقة جماله، والشمس ليست سوى شعاع ضئيل وحيد من أنوار حكمته، وإن قبة السماء ما هي إلا فقاعة من بحر قدرته! إن بارئي العظيم احتجب خلف حجاب السرية، فهو الجميل، وجماله مبرأ من أية شبهة نقص. ومن ذرات هذا الكون خلق عدداً كبيراً من المرايا، ومن خلال كل مرآة عكس مظهراً من مظاهر جلاله وجماله لكل عين مبصرة، فكل ما يبدو جميلاً ما هو إلا تجلٍّ لهذه الملامح.

والآن مادمت قد أبصرت بعض هذا التجلي، فما عليك إلا أن تسارعي إلى الينبوع، لأن في ذلك الهباء الضوئي يتلاشى هذا الانعكاس وينخسف تماماً. كوني حذرة من التسكع بعيداً عن ذلك الينبوع الأول، وإلاّ فإنه عندما يخبو ضوء هذا الانعكاس، فإنك سوف تتركين في الظلام. إن هذا الانعكاس ما هو إلا ظل زائل زوال حمرة الورود. فإذا أردت دوامه فما عليك إلا الالتفات إلى المنبع

والأصل، وإذا أردت الإخلاص فتحري عنه هناك أيضاً . لماذا تمزقين روحك شَعاعاً على شيء تجدينه هنا لحظة ويذهب في اللحظة التالية؟

ولما سمعت بازغة هذه الأسرار، إذا بها تطوي بساط حبها وهيامها بيوسف وتقول له:

"حتى عندما كنت لا أملك سوى سماع وصفك، كاد قلبي يتفطر من الحرقة لكي أمتلكك، ولهذه النهاية كنت مستعدة أن أحرك السماء والأرض، وعندما رأيت وجهك شعرت أن قواي تخور، وأنني بكل سرور أسلم الروح عند قدميك، والآن وقد فضضتَ أمامي لؤلؤة السر، وكشفتَ لي عن هذه الحكمة الخفية بتفكيرك السليم سأدير ظهري لحبي هذا . لقد كشفتَ لي القناع عن زيف رغبتي، وأخذت بيدي من هباء شعاع شمسي إلى الشمس ذاتها . والآن مادام قلبي قد تفتح لتلقي هذه الحقيقة المستترة- بأن عشقك ما هو إلا مجرد مجاز إلى الحقيقة- فمن الأفضل لي أن أتوقف عن المكوث عند المظاهر الخداعة. وإني لأدعو لك المولى القدير أن يثيبك عني خير الجزاء لأنك فتحت عيني لأكون عاشقة للحبيب الحقيقي الواحد الأحد . لقد حررتَ قلبي من جميع علائقه ودعوتني لكي أستقرّ في صومعة التوحيد . إن كل شعرة في رأسي تود أن تشيد بما فعلته وتشكرك عليه، وكل هذا لا يعدل إلا لمحة صغيرة مما أكنه لك من الامتنان" .

ثم قالت ليوسف وداعاً، وغادرت المكان بعد أن تخلت بسرعة عن جميع الأمور الدنيوية ومتاعها . ثم سارعت إلى بناء بيت بسيط لنفسها، قبواً على نهر النيل. وألقت بكل ما تملكه خارجه، وَدَعَتْ الفقراء والمساكين والمحتاجين لكي يأتوا ويأخذوا منه مايشاؤون، وبذلك بقيت مع ما يقيم الأود من الطعام لليلة واحدة، ولبست على رأسها خرقة بالية من عصابة قديمة مستبدلة بها التاج المرصع

بالجواهر، ولم تعد تلقي بالاً إلى الحرير أو الساتان، ، وكان لها معطف من اللباد لامع كالمرآة ألقته على ظهرها، وحملت بيدها مسبحة حباتُها من الطين البسيط المشوي، وكأن هذه الحبات عندها تساوي أغلى الجواهر. وأدارت ظهرها لمباهج العالم ومغرياته مثبتة نظرها إلى القبلة في زاوية صومعتها، وقضت بقية أيامها في هذا الزهد، وبورع ثابت كرست أوقاتها للصلاة والتعبد.

وبعد أن بلغت طريقُ حياتها نهايتها أسلمت الروح ببساطة وهدوء. ولا تتصور أنها ماتت هكذا بلا فائدة – أبداً، لقد نالت جزاءها، لقد توفيت ناضرة إلى ربها ناظرة، إلى نور الله، محبوبها العظيم.

آه يا قلبي! تعلم من تلك المرأة كيف تتحمل الألم ببطولة، كما فعلت! وإذا كنت لا تعرف الألم الذي يستهلك النفس، فعلى الأقل تحسر على أنك تفتقر إلى هذه المعاناة. عليك أن تفكر كيف قضيت حياتك في عبادة المظاهر، دون أن تحاول الهروب ولو مرة، ولو لحظة واحدة، من العلائق الزائفة، والجمال الآيل إلى الذبول. كفاك استمراراً في الكسل وأنت ما فتئتَ تتعثر فوق الصخور الناتئة على الطريق، أو تتنقل مسرعاً كالطائر من غصن إلى غصن! ما عليك إلا أن تتجاوز حدود الزمان والمكان وتبني عشك في قصر الحقيقة! إن الحقيقة واحدة، بينما المظاهر لها آلاف الطيات والثنيات. لا تبحث عن طمأنينة النفس بين المتاجرين بسلع المظاهر! وما دام الناس يتجاذبونك من هنا وهناك، فلن تجد سوى الاضطراب، لأنك تفتقر إلى القوة التي تجعل من عدوك شغلك الشاغل فتهزمه، ومن الأفضل لك أن تهرب منه وتعتصم بالله الواحد الأحد وحصنه الحصين!

٢٥- ترتيب زليخا أسباب فراغ البال ليوسف عليه السلام وخدمتها له

حينما جلبت زليخا تلك الثروة إلى شبكتها، سكّت السماءُ النقودَ باسمها، فأدارت ظهرها واهتمامها للعالم كله وما فيه من مغريات وكرست إخلاصها كلية لخدمة يوسف.

وهنا اقتنت له ثلاثمئة وخمسة وستين ثوباً من الحرير المقصّب – لكي يرتدي في كل يوم من أيام السنة واحداً منها. وفي كل صباح، كانت تساعده لكي يكون في أبهى منظر، وكانت تتنهد حاسدة قميصه، كأنما تقول:"كم أتمنى أن أكون مجرد خيط في نسيجه لكي ألامس الجسد الذي يحويه!" وتقول لردائه: "لماذا لا أستطيع أن أمسك به مثلك؟". وإذا مشطت خصلات شعرة المتدلية على كتفيه وجدت في هذا العمل بلسماً شافياً مهدئاً لقلبها الهائم المجنون، وجعل روحها أسيرة لهذه الشبكة المعطرة التي تجدلها بيديها.

ومن أجل طعام الحبيب، أعدت زليخا غرفة وملأتها بأنواع شتى من الأطباق والمأكولات، وبسطت أمامه كل ما يمكن أن تشتهيها نفسه، وكأنها تعدّ ذلك لخاصة نفسها.

وإذا أمسى المساء، وشعر يوسف بالنعاس، شعرت مثله بذلك فأعدت له فراشاً وثيراً من الحرير مفروشاً بالورود، ثم جلست إلى جانبه تنشد بعض الترنيمات الجميلة وتقص عليه قصصاً تمسح بها الغبار عن قلبه. وفي النهاية عندما يسدل النوم الستائر على عينيه، تراها ساهرة كالمصباح في حماسها المشع، فتترك عينيها الشبيهتين بعيني الظبي ترعيان في هذا المرتع الخصيب من الجمال المقمر حتى مطلع الفجر. كانت تعض أصابعها من قلة صبرها واحتمالها، وتنتظر الليل بطوله حتى ينجلي. وهكذا أمضت هذه المرأة النبيلة حياتها دون لحظة استراحة، وهي تشاركه آلامه وتمطره بوابل من العاطفة

جاعلة من نفسها عبدة وشيكة له. نعم! إن العاشق الصادق رقيق لمن يحب، وبأهداب عينيه يرمي بعيداً بكل الأشواك والآلام عن طريق المعشوق - يفعل هذا دائماً على وجل من ألاّ يحظى بالقبول.

٢٦- شرح يوسف عليه السلام قصة محنته وما عاناه في الجب، ووقوف زليخا على أن الحزن الذي كانت تحسه ذاك اليوم والليلة كان سببه آلامه بالبئر في ذلك الوقت

قال الراوي لهذه القصة الجميلة بأنه في يوم من الأيام، وقبل أن ترى زليخا يوسف، بوقت قصير، شعرت في نفسها بألم محرق مبّرح غريب ملأ جسمها وروحها بما لا يطاق من الضجر المتواصل. ففي المنزل لم يكن هناك شيئ يثير اهتمامها، وفي خارج المنزل لم تجد من يسليها. فكانت لا تعدو ذاهبة آيبة لا تلوي على شيء، وقد أفعم قلبها بالأسى وعيناها بالدموع. وأخيراً سألتها الخادم عما دهاها قائلة: "إني أراك تغرقين في محيط من الحزن، إنك مثل ورقة شجر في مهب الريح، تدور في كل اتجاه، أخبريني ما الذي سبب لك كل هذا الهياج؟ ومن هو وراء هذا العذاب؟ فأجابت زليخا :"إني لا أعرف سببه أنا أيضاً، إني حائرة تماماً. ما الذي، أو مَنْ أوجد هذا الألم الذي أحسه؟ إن ألماً غامضاً سلبني هدوء نفسي، وأحس أني أسيرة لنزواتي المتقلبة. إني لأشبه بأرض هادئة غزاها إعصار هائل".

والآن عندما أصبح يوسف وزليخا صديقين متلازمين، بدأ ذات مساء يخبرها عن حياته والمحن التي مر بها. ولما وصل إلى قصة البئر، أحست زليخا بأنها تتلوى كالحبل. وفجأة خطر ببالها:

أحدث لها هذا الألم الخانق حين كان يوسف في البئر؟ وبدأت تحصي الزمن بشهوره وأيامه، وكان توقعها أنه كان حقيقة!

إن القلب المخلص البصير يكون على وعي تام لما يحصل عند المعشوق، فكأن هناك قناة تصل مباشرة من القلب إلى القلب – وخاصة عندما يكون قلب العاشق مجرحاً بمئات الجروح بحثاً عن حبيبه. وكل جرح من هذه الجروح نقطة انطلاق إلى الطريق التي تقود إلى الحبيب وتدل العاشق عليه، وهكذا وبومضة سريعة تدرك بصيرةُ المعشوق حالة عاشقه الذي غدا لا حول له ولا قوة، روحاً وجسداً. فدع عصفة من الريح تحرك خصل شعر الحبيب، لترى كيف تتلظى روحك العاشقة بالعذاب!

وأنت، يا جامي، عليك أن تنفض يدك من وجودك وتبرأ منه، أياً كان نصيبك منه، العز أو الذل! طهر نفسك من الكره ومن الأثرة وحب النفس! لمع مرآتك فربما يلتمع قلبك بذلك الجمال السامي من ممالك الأسرار – تماماً كما حصل للأنبياء! وعندها بكل هذا القلب المستنير بهذا البهاء، لن يبقى سر الحبيب مخفياً عنك.

٢٧– رغبة يوسف الاشتغال بالرعي لأنه لم يكن نبي قط لم يشتغل بالرعي وتهيئة زليخا له وسائله

كم هو سعيد ذلك القلب المتيم الذي هادنه القدر فأضاع نفسه في قلب المعشوق! وجرد نفسه من شهوات النفس! إنه يمحو نفسه تماماً ويضعها رهن إرادة المعشوق. حتى وإن طلب إليه أن يجود بروحه، فإنه يفعل ذلك بكل تواضع.

وقديماً قيل إن الراعي وحده هو المناسب ليصبح رسولاً ويدير أمة، والآن مع أن يوسف مُنح آلاف الأمنيات، فإن قلبه كان مازال يتوق إلى أن يصبح راعياً . ولما علمت زليخا بذلك سارعت لكي تساعده على تحقيق هذه الأمنية.

وكان عندها مقلاع راعٍ صنعته له خصيصاً عند أمير صناع هذا الفن، ثم نادت على الرعاة الذين يرعون قطيعها في الجبال والسهول لكي تضع إلى جانب أغنامهم بعض الحملان ليوسف، لقد كانت مخلوقات رائعة بأصوافها ذات الملمس الحرير، والمتجعدة التي أثقلت أجسادها فتدلت على الأذيال. وعندما تمر على شكل قطيع في وهد صحراوي، فإنك تظن بأنك رأيت برجاً من رغوة زبت تحركت بفعل الرياح، وهناك وفي وسط القطيع كان يوسف، كشمس ساطعة في مدارها . وهناك أيضاً كانت زليخا، بكل صبرها وذكائها، بكل قلبها وروحها، تقوم بدور حراسة الراعي الصغير، تراقبه ككلب أمين.

وهكذا كان دأبها تلبية رغبة يوسف في كل شيئ حتى الرعي، لأنه لم يفقد حرية اختيار ما يشاء لنفسه. وكان يستطيع أن يبقى راعياً وسط السهول، لو أراد ذلك، فيحكم مملكة من أرواح المخلوقات. ولكنه في أعماق قلبه استمر هذا الطفل، ابن الحور، حراً متحرراً من أية مملكة أو تحكّم!

٢٨- طلب زليخا وصال يوسف وتعففه عن ذلك

عندما يفقد العاشق قلبه في حب الجمال، فإنه يودّع هدوءه النفسي، وإذا كان مفلساً لا يملك أي مال فلا بد أن يلعب لعبة الحب بالدّين- في خياله. وحين تجف دماء قلبه، يتحول انشغاله من قلبه إلى عينيه. وعندما يفوز بنظرة تواقة، فسرعان ما يروح تفكيره إلى القبلات والعناق، وعليه أن يضع

نصب عينيه، وهو ينال هذه الأمور، أن هـذه الصداقة مهددة على الدوام بالخوف من الفراق. فليس هناك اطمئنان كامل في العشق، أو ابتهاج حقيقي. إنه يبدأ بأن يتجرع العاشق من دماء قلبه، وينتهي بموت نفسه — والموضوع هكذا. ويالها من سعادة تلك التي يجنيها المرء من مثل هذا الاحتمال!

كانت زليخا قانعة سعيدة بالرؤى، قبل أن تقابل يوسف في اليقظة، لأنها في ذلك الوقت لم يكن عندها تطلع لأكثر من أن تراه بأم عينيها، والآن وقد حظيت برؤيته، فقد اتسع عندها هدف رغباتها. لقد بدأت تلاحقه آملة أن تجره إليها في عناق — وأن تثير رغبتها بتقبيل شفتيه الورديتين، ثم تهدئ هذه الرغبة بضم قوامه السروي إلى نفسها. وعلى كل حال، كان يوسف بعيداً صاداً عن كل هذا، غافلاً عن تنهداتها الدامعة، ولم ينتبه إلى تلك الحمى النابعة من قلبها الملتهب. ولما كانت نظرتها الحنون لا تفارق ذلك الوجه الذي ظلل حياتها، كان يديم إطراق النظر إلى الأرض على الدوام، وكان يتجنب أن تتلاقى نظراتهما، وإلا فإنه يعرف أنه يعرض نفسه لفتنة الإغراء.

والآن هناك فرصة قصيرة للعاشق في لغة العيون إذا لم يتلق استجابةً للنظر. فالحب إذا أغمض عينيه عن حالة عاشقه، فهذا كاف أن يجعل الدموع الحارة تنفجر من قلب العاشق الدامي.

وهنا بدأت زليخا تنحل نحولاً شديداً من الأسى. وطفقت تمر بخريف من اليأس، الأمر الذي جعل خديها يتلونان بالصُفرة، بعد أن كانتا ورديتين. لقد أفعم قلبها بالحزن، وأما قوامها الفارع فقد انحنى تحت وطأة المعاناة، وفقدت شفتاها الملونتين بلون العقيق بريقهما، كما أن وجنتيها أصبحتا باهتتين لا لون لهما. ولم تعد تمشط شعرها وتنظم غدائرها العطرة، بل حجبت وجهها عن المرآة. ولم تعد تكحل عينيها، وما جدوى الكحل إذا كانت الدموع ستذهب به؟وأخيراً بدأت زليخا البائسة تلوم نفسها بقلب جريح قائلة:

"لماذا تعرّضين نفسك للفضيحة بهذه العاطفة الدافقة من أجل عبد اشتُري بالذهب؟ هل يستحق الأمر هذا وأنت أميرة نبيلة، أن تداعي عبدك؟ يجب أن تجدي لنفسك حبيباً من أصل ملكي، مثلك، لأن ما هو ملكي يستحق مثيله. وبجانب كل هذا، يجب أن يكون مغروراً معجباً بنفسه على نحو مدهش، حتى لا يؤيد حباً مثل حبك. ويفكر في المتاعب والمهانة التي ربما تسببها له نسوة مصر، إذا كنّ قد تعلمن شيئاً في هذا المجال!"

ولكن كل هذه الأفكار لم تفد بشيء! إن هذا الشباب الذي لا مثيل له ولا قرين كان يشغل حيزاً كبيراً من قلبها، إلى حد أنها لم تعد تستطيع أن تخرجه من قلبها بمثل هذه التصورات، إنما كانت تزيد من حزنها ويأسها.

وفي حقيقة الأمر، إذا أوغل المحبوب في أعماق الروح، فإن الرابط الذي صيغ بهذه الصورة لا يمكن فكّه. وفي لحظة واحدة تستطيع الروح أن تنفصل عن جسد صاحبها، ولكن رابط العشق يظل عالقاً إلى الأبد. وقد قال من كان ضحية عشق جريح: "ربما يفقد المسك رائحته، والوردة تفقد نضارتها، ولكن من المحال لروح عاشقة أن تتنازل عن عشقها لمحبوبها!".

٢٩- سؤال المربية زليخا عن سبب ذوبانها واحتراقها بشمع جمال يوسف

ولما رأت المربية سيدتها على هذه الحال سألتها والدموع تملأ عينيها قائلة:

"يا نور قلبي، وقرة عيني، أخبريني لماذا أنت شديدة اليأس؟ أليس منى قلبك أمام عينيك وملء بصرك على الدوام؟ إذاً لماذا أراك في هذه الحالة الهائجة؟ فعندما كنت بعيدة عن يوسف، كان سبب الحمى عندك غير مفهوم، ولكن الآن وقد وجدته فلماذا هذا الهذيان؟ إن القدر السعيد جعل من

السلطان لك عبداً، والجمال الذي يستحق تاج الملك قد أصبح تحت سيطرتك، فماذا تريدين أكثر من هذا؟ عليك أن تنسي هموم العالم وتسعدي بمنى القلب حتى الثمالة برؤية ملامحه الساحرة، وتملئي سروراً بهيبة إطلالته. انظري إلى شفتيه، وبعدها تذوّقي السعادة القصوى لغذاء الروح، ومن قوامه النحيل وجسده المصنوع بلون التوليب، خذي ما تتمنين!". فردت زليخا:

"يا أمي العزيزة، إنك لا تفهمين الموضوع برمته. إنك لا تدركين ماذا في قلبي، وما القليل الذي أحصل عليه من روح العالم هذا. وانظري لتري بنفسك كيف يقف هناك وينتظر ليخدمني، ولا يتذمر أيضاً من أنه لا يأخذ مقابل خدمته شيئاً. وأصارحك القول أنه لم يشرد عني طرفة عين، ومع هذا لم يحدث أن نظر إلى وجهي أبداً. أليس هذا من المؤسف أن أقف عطشى على حافة الماء، وليس في وسعي أن أروي عطشي!

وعندما تتقد نظرتي أمام جماله المضيء فإنه يتجنب النظر في عيني، وينظر إلى قدميه على نحو مراوغ — ولا ألومه على ذلك فقدماه أجمل بكثير من وجهي. وإذا حصل ونظرت إليه بملء العين فإنه يبدي لي تقطيبة متجهمة. ولا ألومه على ذلك أيضاً، لأني أعلم بأنه لا يرتكب خطأً بتصرفه هذا. وحينئذ أحس أن قلبي مشدود بعقد كثيرة حينما يعقد حاجبيه، وبعدها لا أجرؤ أن أرفع بصري إليه. وشفتاه مغلقتان بقوة، فماذا أفعل بعد هذا، إلا أن أشرب من دم قلبي النازف؟ إن منظر شفتيه يسيل اللعاب من فمي ويثير الدموع من عيني. إني لأحسد كميه القادرين على ضم ذراعيه — كما أحسد حافة ثوبه، التي تنسحب على الأرض مع تراب قدميه". كانت المربية شديدة الأسف لما حدثتها به زليخا، فقالت لها: "لا أعتقد أنه في وسعك أن تتابعي حياتك بهذا الأسى، ولعمري للبعد خير من مثل

هذا القرب. وإن تبتعدي فالألم يكون قوياً ولمرة واحدة، ولكن في مثل هذه الحالة فإن هذا الألم يتجدد يوماً بعد يوم!".

٣٠-إرسال زليخا وصيفتها إلى يوسف لتطلب إليه تحقيق مقصودها وإباؤه

ولما سمعت زليخا من مربيتها هذا الجزع عليها والشفوق بها، بدأت تحثها بصورة متوسلة لتساعدها: "إنك ناصحة مخلصة لي، لقد كنت لي خير عون. وما عليك إلا أن ترثي لحالتي الحزينة وتساعديني مرة أخرى. اذهبي إليه من أجلي، وكوني لساني الناطق، واحملي إليه هذه الرسالة، قولي له:

"أيها العنيد المدلل! ياذا الوجه الحيي، يا من ترشف نسغ القوة من حديقة الجمال والروعة بصورة لا تضاهى، وفي قالبك الفخار منك مزج القلب والروح، وهذا كله ما هو إلا فرع من نبت شجر الجنة. ولم تلد عروس الأبدية منذ الولادة في هذا العالم طفلاً أحسن منك نقاءً وجمالاً. إن مولدك جعل عيني آدم عليه السلام تلتمعان بالسعادة، ووردة وجهك الجميل تحولت في وجودنا هذا إلى حديقة ورود. وجمالك الأخاذ شيء فوق مستوى البشر، ولم يشاركك فيه أحد ولا حتى الحور، ولذلك أخفين وجوههن خجلاً، وإن الملائكة أنفسهم، مع مكانتهم العالية سجدوا أمامك!

ويا من رفعتك السماء عالياً، ألا ترغب في أن تتعطف وتنشر ظلك على من ابتلي بحبك على نحو موجع؟- تتعطف على زليخا التي بالرغم من جمالها الأخاذ وقعت أسيرة شباك عشقك دون أن تستطيع أن تفعل شيئاً؟

فمنذ طفولتها امتلأ صدرها بلهيب عشقك، وأوجعتها لواعج الشوق طويلاً. لقد رأتك وهي في بلدها ثلاث مرات في الحلم، ومنذ ذلك الحين عاشت في هياج لا يهدأ، مرة تضرب مثل الموجة وسط

العاصفة وأخرى تقتحم بحر الهموم بقارب الأرق. إن شوقها جعلها في نحول الشعرة، وأنت منى قلبها الوحيد. وفي غمرة يأسها وعجزها أضاعت جميع ما تملكه في الحياة.

إن الرحمة أمر جميل، فلتكن رحيماً بها! إنك لتملك على شفتيك الماء المانح للحياة، أفلا تستطيع أن توفر لها ولو قطرة؟ دعها تطفئ رغبتها على هاتين الشفتين الملونتين بلون العقيق، وقد تجد على سبيل الصدفة بعض الراحة من العاطفة التي تستهلك نفسها. إنك لتقف هناك مثل شجرة خصبة بالثمار، فدعها تُشبع نفسها منها، واتركها تجمع الثمرات الناضجات من نخلتك الأخاذة ثم ترمي بنفسها على قدميك. هل ستفقد شيئاً كثيراً من هذه الوقفة المنتصبة إذا رمقتها بنظرة -وخاصة أن منتهى أملها أن تكون رقماً بين عبيدك بكل ما تملك من قوة". ولما سمع يوسف هذا الكلام المضلل قال للمربية:

"أنت أيتها المرأة المتفننة في القول! لا تحاولي أن تنفثي سحر كلماتك الخداعة في وجهي! إنني عبد لزليخا أُعتق بثمن، ولقد منحتني مننا كثيرة بهذا العتق! إن كل ذرة تراب في جسمي لتسجد لها سجدات شكر وامتنان! إن قلبي وروحي قد انتعشا بلطفها الحبيب، وإذا أردت أن أقضي بقية حياتي محاولاً إحصاء نعمها وفضائلها علي لبقيت عاجزاً عن ذلك. ولسوف أبقى لها عبداً مطيعاً لأوامرها، أنا الأجير، أقف هنا على أهبة الاستعداد لخدمتها على الدوام. فامحي من تفكيرك فكرة أن أقبل بمعصية أوامر خالقي، سبحانه، أما تلك الشهوة العاجلة فلا أفكر فيها، ولا أقبل أن أنطلق منها إلى طريق الخيانة الملتوية! إن العزيز يعاملني كابن أثير عنده، وقد أمنني على أهل بيته وشرفه وفقاً لولائي وطاعتي له، فكيف أخونه؟ إن الله سبحانه وتعالى بذر في قلوب خلقه رغبات كثيرة متنوعة، فهناك مخلوقات طاهرة، والطهارة فيهم فطرة سليمة، بينما هناك آخرون ولدوا للفسق، ولا يستطيع رجل أن ينجب كلباً،

كما لا يستطيع كلب أن ينجب رجلاً. إن الشعير لا يأتي من القمح، كما لا يأتي القمح من الشعير. إن قلبي يسكن فيه نبل أبي يعقوب، وحكمة جبريل. إنني محسوب على النبوة، والنبوة مكتوبة عليّ. وقد عُهدت إلي هذه الرسالة من جدي إسحاق عليه السلام وإني وردة السر في حديقة الأولياء. والله سبحانه حرّم عليّ أن أرتكب معصية تبعدني عن تتبع خطى أجدادي الأنبياء.

ولذا قولي لزليخا أن تتخلى عن مثل هذه الرغبة، وأن تصفي قلبها وقلبي من مثل تلك الأفكار، ومن جانبي أنا، وبحول الله أود مخلصاً أن أحافظ على عفتي وطهارتي، ما حييت!".

٣١- ذهاب زليخا إلى يوسف بنفسها وتضرعها إليه واعتذاره عن ذلك

وعندما سمعت زليخا تلك الكلمات التي أعادتها مربيتها على مسامعها، أحست كأن عقلها وقع في تشويش وفوضى يماثلان شعرها الأشعث. وبدأت الدموع تنهمر من عينيها اللوزيّتين، وهي تنطلق بنفسها مسرعة لكي تقابل ذلك الشاب المحبوب، وتقول له:

"ليعفّر المولى رأسي بتراب الطريق التي تمشي عليها! إن خالقي لا يرضى بأن أفرغ حبك من قلبي والشوق إليك! فليس من شعرة في رأسي إلا وتختلج بالحب لك! ولا ذرة من كياني باتت مني، أبداً. فوجودك هو وجودي نفسه. إن روحي تحلق فوق شفتي وتتغذى على الألم الذي جلبته إلي! وماذا في وسعي أن أقول عن الحالة التي بات عليها قلبي؟ لقد صار إلى دفقة كبيرة من الدم، لقد غرقت في محيط حبك إلى حد أني امتلأت بهذا الحب من رأسي إلى أخمص قدمي! فافتح شراييني ولن تجد بداخلها دماً بل آلاماً مبرحة تموج فيها!"

وجلبت تلك الكلمات الدموع إلى عيني يوسف، فسألته زليخا بدهشة عن سبب بكائه.

أجل لقد تأثر يوسف بما تعانيه زليخا من آلام مبرحة، فرد عليها بكلمات صارت تنثال من شفتيه اللؤلؤيتين وانهمرت من عينيه دموع كاللآلئ أيضاً:

"إن قلبي المتألم جعلني أذرف هذه الدموع، لأن الحب الذي أستلهمه من الآخرين صار نذير شؤم. فعمتي كانت منجرفة في حبي على نحو خاطئ، حين وصمتني بالسرقة. وكذلك أبي بتفضيلي على بقية إخوتي بذر بذور الحسد في قلوبهم. ولذلك شردوني بعيداً عنه وتسببوا في نفيي إلى هنا، إلى مصر. والآن يخفق قلبي بالرعب عندما أفكر بالمصائب التي سيسببها حبك لي، فتخفض رأسي ذلاً إلى الأرض. لابد أن أمير العشق يحسدني لأن مشاركة أحد له في مملكته أمر مستهجن!". وهنا أجابت زليخا بإصرار:

"يا نور عيني! أيتها الشعلة اللطيفة! يا من بريقه يغنيني عن ضوء القمر! إني أعلم بأنه لا قيمة لي عندك، ومن بين جميع الخدم الذين تراهم حولك أعتبر نفسي أكثرهم وضاعة، ولكن لماذا لا ترحم فتاة مملوكة بائسة، وتحاول أن تهدئها في مصابها؟ فليس في قلبي ذرة لا تحترق شوقاً إليك ورغبة فيك. وإنها لقسوة شديدة أن تشك في إخلاص من تحبك أكثر من نفسها! إن قلبي متصدع بسيف حبك، فلماذا لا تخشى الكره من جانبي؟

أرني شيئاً من العطف والحنان! دعني أطفئ غليل قلبي على شفتيك! دع قلبك ينصهر ولو للحظة، رد لي هدوء نفسي! اقضِ لحظة بقربي واشهد النية الصالحة على الدوام من جانبي التي أكنها لك!" فرد عليها يوسف: "أيتها المليكة! إني لأقف أمامك مثل أسير مقيد بأغلال الخدمة، وهنا ينتهي واجبي، وبجميع المعايير الخلقية يجب أن تضعيني في عمل يحفظ لي أمر ديني. ولكن لا تحاولي أن تجعلي

من عبدك سيداً، وبجبك لي هذا الحب تخجلينني، ومن أنا حتى تجعليني جليساً يشارك العزيز مائدته؟ وحقيقة الأمر، أن أي ملك لا يجد بداً من إعدام العبد الذي يجرؤ على وضع أصابعه في المملحة نفسها التي يستعملها الملك! ومن الأفضل والأصح لك أن تضعيني لشغل بعض الأعمال التي أكرس لها جل وقتي. إنني لم أرفض حتى الآن أي عمل لخدمتك، وإني على أتم الاستعداد للقيام بمئات الواجبات الشاقة التي تكلفينني بها. وبعد هذا كله، فمن خلال الخدمة وحدها يستطيع العبيد أن يحصلوا على متعة العتق". لكن زليخا لم تيأس ولم تتخاذل إذ ردت قائلة:

"أيتها الجوهرة الغالية التي بحضورها لا أعدو كوني أقل من عبدة، عندي مئات من الخدم والعبيد جاهزون لأي عمل قد أحتاجه. ومن الحمق أن أتجاهلهم وأثقل عليك بعبء العمل. ولا تنسَ أن القدم جُعلت للسير على الممرات الشائكة، بينما خولت العين لمعاملة فضلى". فأجاب يوسف:

"استمعي جيداً، يا من قلبك وروحك قد ناءا بثقل حبك لي، وإذا كانت تأكيداتك للحب صادقة فعلاً، وواضحة مثل فلق الصبح، فيجب أن يتبع ذلك موافقة منك الوحيد في أن تدعيه يختار ما يشاء. والآن حين طلبت إليك أن أكون من ضمن خدمك أنكرت عليّ هذا الطلب، وما تفعلينه لا يحسب على سلوك العشاق. إن من أسقم الحب قلبه لا يبحث إلا عن رضى الحبيب، والعاشق يضحي برغبات النفس كلها في هذه الحالة حين يريد إسعاد المحبوب".

قال يوسف هذا الكلام ببساطة لكي يفر من زليخا، ويهرب من مثل هذا الحديث الذي يكمن فيه الإغراء، ومن ثم الخطر والفاجعة! ولكن خصلة رقيقة من القطن قريبة من النار لا تملك هروباً منها، ومن المحال أن تقدر على مقاومتها فلا تحترق فيها.

٣٢- إرسال يوسف عليه السلام إلى حديقة زليخا وتهيئة أسباب المتعة له

حدثنا البستاني الذي يتعهد براعم هذه القصة القديمة، بأن زليخا كانت تملك حديقة جميلة في قصرها رائعة إلى حد أثارت حسد جنة (إرم)[١٤]، محاطة بأسوار من اللبن، ومسورة بنباتات كثيفة شائكة ذات ورود ذكية الرائحة. وفروع أشجارها متشابكة في عناق جريء، فالوردة تتراخى وسط مركبة من الأوراق، بينما تنحني من فوقها شجرة الدردار وكأنها تظللها . في ذلك المكان الهانئ أعطيت جائزة الجمال للنخلة المثمرة التي كانت أكثر الأشجار ثماراً حلوة في الحديقة، ففي كل عذق فيها أكوام من حصاد التمر السكري ـ المؤن التي يحملها كل من تعبت نفوسهم في طريق الأسفار. وتتغذى طيور الحديقة على ثمار يتدفق منها ما يشبه الحليب، كشجرة التين، فتبدو على أغصانها كالصغار الرضّع. وكانت تلتمع فيها شمس الظهيرة على نحو مشرق وسط وشي أوراق الشجر الذي يغطي الأرض بخليط من النور والظل، فيبدو منظرُها ككنز من الذهب والمسك. ورددت طيور السماء أغاريدها بعد أن أثارها هذا النشاط الضوئي تحت القبة الزرقاء المائلة إلى الخضرة. وأما حفيف الأعداد الضخمة من أوراق الصفصاف الذي يمر عبر الهواء فكانت تستجيب له الأسماك بأعدادها الضخمة في جداولها وتتلوى بحركات رشيقة. كان كل ذلك كصفحة مكتوبة معقدة الخطوط لا تقرأها إلا النفوس ذوات البصيرة القادرة على حل رموز صنع الخالق البارئ الحي العظيم، بتأمل مخلوقاته.

---

[١٤] إرم: مدينة تاريخية اشتهرت بأبنيتها، ذكرت في القرآن الكريم: [إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد]. وقد اختلف فيها فقيل هي دمشق لكثرة بساتينها وجمالها (عن لسان العرب).

هنا في هذا المكان قابلت زليخا يوسف وحدثته، ولكنه من جانبه حاول التخلص من حديثها بالبحث عن وسيلة يختصر فيها الحديث بينهما . كانت طيور الحديقة تغرد بصوت مسموع صائحة قائلة للزهور: إن مثل هذه الحديقة الرائعة بحاجة إلى بستاني وسيم! كما أرسلت في طلب مئات من العذارى الفاتنات معطرات الصدور كلهن كخرائد اللآلئ التي لم تثقب، ثم قالت ليوسف: "والآن مادمت قد سحقتني بقدمك فإني أدعك هنا لكي تفعل ما تشاء بهذه الدمى، إذا كان كل ما عرضته مرفوض عندك !- وهذا ما يزيد آلامي المريرة آلامًا، واختر لنفسك بعد ذلك منهن واحدة جميلة تسرك، فالوقت الآن وقت المباهج الحسية!" .

ثم أعطت أوامرها للوصيفات قائلة: " أيتها الفتيات ذوات الشفاه المكتنزة، أطلب إليكن أن تخدمن يوسف بالقلب والروح، حتى لو قدم إليكن السم عليكن أن تتجرعنه طائعات، وإذا أرسلكن إلى مكان، فما عليكن إلا الطيران والمخاطرة بحياتكن من أجله! وبكل سرور أطعن أوامره. ولكن إذا شعرت إحداكن بأي تفضيل منه لها أو ميل، فعليها أن تخبرني على الفور!" .

وبذلك ظنت أنها وضعت ختم الخديعة في هذه الصورة من الرغبات، ففي الوقت الذي قد تنجح فيه إحدى الفتيات في اجتذاب يوسف، حسب ظنها، ويصبحان على شفا الوصال، فسوف تنسحب زليخا إلى مكان قريب خلسة، وتتمتع بثمرة ذلك الشاب الأخاذ سراً وتقطف ثمراً مسروقاً تحت النخلة المهيبة. وبذلك تسرح بقلبها وروحها مع الحبيب وتعود بجسمها فقط إلى القصر!

إن العاشق السعيد هو من يتصالح مع نفسه في قبول الفراق بأمر من المحبوب، ولكن عندما يطلب منه الحبيب أن يتركه وشأنه، فعلى العاشق أن يتحمل تجربة الفراق بكل صبر، وعندما لا يكون في خاطر الحبيب ميل إلى اللقاء بمن يحب، فالابتعاد أولى وأنجع بمئات المرات وألذ من اللقاء !

٣٣- إقبال الليل وعرض الجواري جمالهن على يوسف عليه السلام

عندما أظلم الليل وتحولت السماء إلى ما يشبه عروساً شابة لعوباً، شعرها منسق متناثر مزدان بالزهور، بدأت خادمات زليخا يبدين أنفسهن بكامل زينتهن، مظهراً وحديثاً، وأخذن مواقعهن حول يوسف، كل منهن تهمس له بكلمات ساحرة. فبدأت إحداهن قائلة بصوت معسول: "دعني أسعد حنكك بأحلى أنواع العسل وأفتح شفتي لتأكل ماتشاء مما تحتويان !".

وقالت أخرى، وقد تلوت أمامه بحركات لعوب: "أيها الشاب الذي كماله يفوق الوصف، تعال واجعل مأواك عينيّ الواسعتين، تعال وكن تلميذاً للحب، يا حبة العين !" وتقدمت ثالثة، وهي تشير إلى جسمها الرشيق، وقد تلفعت بثياب حرير وقالت: "ليت سروية القد هذه تكون معانقتك هذه الليلة ! ومن دونها كيف يلذ لك منام في السرير ؟" وتقدمت أخرى متجللة بشعرها الفاحم الطويل معطر الخصلات وقالت بصوت مُقنع: " أتستطيع أن تُحجم عن فتح الباب لي لكي تفوز بالوصال؟ أرجوك ألا تتركني معلقة هكذا دون معين في الخارج مثل حلقة الباب !"

وأما آخرهن فقد تمنطقت حول خصرها بزنار جميل وقالت: " أريد أن تجعل من ذراعيك حزاماً حولي، لأن قلبي قد أصبح في فمي من أجلك !". وبذلك قامت كل جميلة منهن بدورها بمحاولة لكي تغويه، ولكن يوسف كان في قرارة نفسه حديقة نقية من الجمال، ولم يكن بحاجة إلى مثل هذه

الأعشاب الضارة. لقد كن جميعهن ماكرات مليئات بالحيل الخادعة، مع أن هذه الدمى إذا نظرت إليهن رأيتهن في الحقيقة أصناماً وليس غير. ولم يكن لدى يوسف نية سوى أن يرشدهنّ إلى طريق العبادة الحق- ويطرد من نفوسهنّ غرور الحياة وخداعها، ويدلهنّ على حقائق الأبدية التي لا شك فيها .فقال لهن: "أيتها العذارى الجميلات، العزيزات على عين الإنسان، لا تجلبن العار على أنفسكن بسلوك طريق الرذيلة، وبدلاً من ذلك اتبعن طريق الإيمان الحقيقي، فخلف هذا العالم الدنيوي هناك الخالق العظيم، الهادي لكل من ضل عن السبيل. لقد صاغ المولى طينتنا من ماء الرحمة، وبذر فيها بذرة الحكمة، التي يمكن أن نزرع شيئاً منها في هذه الحديقة الملكية- ويمكن أيضاً أن تنمو عالياً بكل فخر لتحمل ثمار التقوى والإنابة إلى الله. إنه هو وحده الذي يستحق العبادة، فهيا بنا نطع أوامره المقدسة! فمن دون خالقنا العظيم، لا نساوي شيئاً، كائناً من كنا".

واستمر يوسف يعظ أولات الفتيات الضالات من حلول المساء حتى بزوغ الفجر، حتى ينبههن إلى حقيقة الوجود. ثم ثنى بأن علّم كل واحدة منهن تسبيحة التوحيد والإيمان. وبعدها أشهدهن بأن لا إله إلا الله، فكان له مذاق العسل في أفواههن.

٣٤- تضرع زليخا لدى وصيفتها لالتماس حيلة وسبب في الوصال

في صباح اليوم التالي حين بزغ الفجر وطلع النهار، سارعت زليخا إلى الحديقة لترى يوسف الذي كان في حالة سعيدة من صفاء الفكر. كان واقفاً وسط جمع من التلميذات المريدات اللاتي كن يستمعن إلى تعاليمه بلهفة شديدة. لقد تحطمت تلك الدمى جميعها، فأصابعهن الآن تكرر التسبيح مع حبات المسبحة، وألسنتهن تلهج بذكر الله. وهنا صرخت زليخا:

"أيا يوسف، يا منية كل قلب من رأسك إلى أخمص قدمك: ما هذا النور الجديد الذي يضيء وجهك؟ من أين جاءك هذا الجمال الذي لم ألحظه من قبل؟ ماذا حصل ليلة أمس لكي يعزز جمالك ويرفعك إلى أعلى ما يكون الجمال؟ لا شك أن أولات الفاتنات جميلات القوام، في بياض الياسمين قد ضاعفن إغراءك ورفعنك إلى قمة جديدة من درجات الكمال!". قالت كلاماً كثيراً من هذا النوع، ولكن شفتي يوسف بقيتا مغلقتين بقوة مثل برعم الوردة. بينما علت وجهه سيماء الخجل، وخفض رأسه إلى الأرض وعيناه تتفاديان النظر إليها. وزفرت زليخا تنهيدة كئيبة لدى بروده العنيد، وتحرقت روحها بالألم، والتهم قلبها حريق هائل من اليأس، وتركته، وهو من عاشت من أجله، ودخلت غرفتها وأغلقت الباب على نفسها وألقت بنفسها في حفرة اليأس. ولما رأت زليخا هذا الفارق الهائل بينها وبين يوسف، وأنها ستغدو ضحية عاطفة عمياء، قالت لمربيتها ذات مساء، بعد أن طلبت إليها أن تبقى إلى جانبها، فجاءت وأمطرتها بفيض من الثناء والمديح، فقالت لها زليخا: "ألا ترين حالتي التي صرت إليها؟ ألا يمكن أن تجدي لي طريقة أصل بها إلى هدفي؟ إلى متى أبقى معذبة بالفراق عن روح العالم؟ وأنا أرى محبوبي مازال غريباً عني، وعلى ماذا حصلت من إبقائه عندي تحت سقف واحد؟ ما قيمة التواصل بين الطين والماء، إذا لم تسرع بهما الروح إلى حيوية الحياة؟" فقالت المربية:

"يا بنة الحور، لقد منحك المولى من الجمال ما تستطيعين أن تأسري به قلب أعقل رجل وتسلبيه إيمانه. فلماذا إذاً تضعفين وتفقدين شجاعتك؟ أشعلي النار من سهام عينيك وأطلقيها من قوس حاجبيك واصطادي بها ذلك الجميل الآسر للقلوب! يجب عليك أولاً أن تجتذبيه بأن تدعيه يرى

وجهك، ثم اجلسي معه وحدك وركبتاك ملاصقتان لركبتيه، واجعلي تلك الشجرة الخصبة تتحرك، وبالملاطفة اجلبيه إلى ملاطفة مثلها" .فردت زليخا قائلة باحتجاج:

"يا أمي العزيزة، كيف أجعلك تفهمين الطريقة التي يعاملني بها يوسف؟

إنه لم يرمقني بنظرة أبداً، فكيف لي أن أستعرض جمالي أمامه؟ ولو كنت القمر نفسه، فإنه لم يلحظ وجودي. ليته فقط ينتبه إليّ ولو من وقت لآخر، إذاً فسوف يدرك الحالة التي أنا عليها، ويجد حزني طريقاً إلى قلبه- ومع ذلك أشفق عليه من أن يحس آلاماً مبرحة كتلك التي أقاسيها" . فردت المربية:

"لقد انتهيتُ إلى خطة تريحك وتهدئ بالك، ولكن تنفيذها قد يكلفك جمالاً محملة بالذهب والفضة. أود أن يكون لك قصر جميل، وفي كل مكان فيه يرسم صورتك وصورته فنان عبقري، وأنتما معتنقان عناقاً غزلياً . فإذا طلب إلى يوسف أن يمكث فيه مدة من الزمن، ورأى الصور في كل مكان وأنتما معاً متعانقان، فإن منظر جمالك سوف يحرك فيه الرغبة، وربما يبحث بقلبه وروحه لكي يمتلكك. لأنه إذا استيقظ الميل فإنك تعلمين أنه يقود بصورة لا تقاوم إلى حيث تعلمين!" . وهنا فرحت زليخا بهذه الفكرة أيما فرح، ووضعت بين يديها مالاً كثيراً لتنفيذها .

٣٥- تنفيذ المربية للقصر وتصوير يوسف وزليخا فيه

حدثنا المهندسون المعماريون لذلك الصرح القصصي بأنه بعدما عرضت الوصيفة فكرتها عن بناء قصر، اتفقت مع متعهد يمتلك مئات المواهب الفنية في هذا الباب بكل أنملة من يديه. كان علمه بالهندسة المعمارية والفلك غزيراً يُزري بإقليدس وبطليموس. وعندما ينحت بإزميله يصبح الحجر بين يديه ناعماً أملس كالآجر غير المشوي. وإذا حول تفكيره إلى الرسم فإن عمل فرشاته هو الإبداع بعينه

حتى في المناظر الطبيعية الزيتية، بأن يعطيها إيهاماً من الحركة والحياة، وإذا نحت تمثالاً لطائر على الحجر فإن حصيلة إبداعه تكاد تطير بعيداً. مثل هذا الرجل كان الفنان الذي وضع تحت أوامر الوصيفة، وشرع ببناء قصر مموّه بالذهب. فكان للقصر انسجام صفاء الريف في وقت الفجر، حجراته واسعة سعة آمال البشر، وردهاته مرصوفة بالمرمر الناعم، وأبوابه التي تصل الغرف بعضها ببعض منجورة من خشب الأبنوس والعاج. وبداخله غرف متحاذية، كعدد السماوات. وكل واحدة مبنية من نوع من حجر مختلف عن الآخر، ومتميز بالبريق وصفاء اللون. وفي الغرفة السابعة التي كان لونها وتصميمها يفوق الوصف، نصب المهندس أربعين عموداً من الذهب المرصع، كل واحد منها مزين بأشكال متنوعة من الوحوش والطيور، وفي أساس كل عمود وضع غزالاً ذهبياً، وملأ موضع سرته بالمسك الأذفر. أما باحة البيت التي تتوسطه فقد ملئت بطواويس ذات ريش مذهّب تتخبتر وهي تفرش بكبرياء ذيولها المرصعة. وفي وسط الباحة نُصبت شجرة لم ير المسافر المتمّرس بمشاهدة الغرائب شبيهاً لها. كان جذعها الأنيق من الفضة، وفروعها من الذهب وأوراقها من الفيروز الأزرق الصافي. وعلى كل غصن جثم طائر من الزمرد ذو منقار من عقيق.

وفي كل مكان من القصر رسم الفنان صورة يوسف وزليخا، كعاشقين انضما في عناق حميم. ومنه ترى زليخا تقبل شفتي يوسف، وفي مكان آخر يُرى يوسف وهو يحل حجزة زليخا — منظر مدروس لكي يثير الغيرة في نفس الرائي. وفي الحقيقة لم يكن هناك مكان في القصر إلا وظهرت فيه صورة هذا الثنائي السعيد. فحيثما ينظر المرء، فإن صورتهما تجذب انتباهه أول ما تجذب.

ولما تمت زخرفة القصر، لم يكن تحرق زليخا إلى لقاء يوسف إلا في ازدياد . وكلما زارت معبد الملذات هذا، كلما تحرك شوقها وتجدّد واهتاج.

وعندما فرغ البنّاء البارع من بناء القصر، أمرت زليخا أن يُفرش برياش فاخر باذخ، فلم يكن ينقص شيء لمسكن الملذات هذا سوى يوسف.

نعم! من دون الحبيب فإن الجنة نفسها تبدو قبيحة في عيني العاشق المتحرق، ولذلك قررت زليخا أن ترسل في طلب يوسف ليكون له فيه مكان الشرف، وبذلك تكون معه وحيدة تلعب لعبة الحب وتقفز معه في أمكنة التسابق للفوز، وتنهب أمنياتها من عقيق شفتيه اللتين تبعثان الحياة في النفس، وتجد السكينة أخيراً في خصلات شعره الجامحة. ولكن عليها أولاً أن تزين نفسها وتبرز جمالها لكي تجذب يوسف إليها . ولم تكن بحاجة إلى أية زينة، ولكن على الأقل تعزز مفاتنها .

نعم! مهما كانت الوردة جميلة، فإنها تبدو أكثر جمالاً بعقد من قطرات الندى.

وهكذا قامت بزيادة لون خديها، وغمقت لون أهدابها وزججت حاجبيها، وعكصت غدائر شعرها المعطرة إلى الوراء، وزادت عليها من طين المسك الفاخر. ثم قامت بمسح جفونها بالكحل لكي تجعل منهما أداتين للسحر الأسود. ووضعت هنا وهناك من بشرتها نقاطاً سوداً، لتكون كالأخوال، وعلامات على الجمال الذي يصرح للمحبوب قائلاً: "إن وجهك قد أشعل النار في قلبي، فأحرقه حتى صار مثل ورق السذاب[١٥]" ثم خضبت يديها بالحناء، وطلت أظافرها راسمة عشرة أهلة عليها، وكأنها تعلن عن مهرجان للحب وشيك الوقوع. وتدلى من شحمتي أذنيها قرطان تبديا كنجمتين على جانبي القمر.وبدا

---

[١٥]) السذاب : جنس نباتات طيبة من الفصيلة السذابية، ضيق الورق، والتشبيه واضح هنا .

رداؤها على جسمها كبرعم الورد في حلة قشيبة من الغلالات، وأخيراً وضعت على غدائرها السود تاجاً مرصعاً بالجواهر. وبعدها كانت وهي تنحني مثل طاووس مهيب في حديقة القصر، وتطلعت إلى جمالها في المرآة بنظرة ناقدة، وابتهجت برؤية صورة الكمال معكوسة فيها.

٣٦- دعوة زليخا يوسف عليه السلام إلى البيت ومطالبته بوصلها

والآن اعتزمت أن تجد شارياً لهذا الكنز، بأن أرسلت وصيفاتها من الخادمات هنا وهناك ليجدن لها يوسف، وفجأة دخل يوسف، بوسامته كأنه القمر، خجولاً مثل كوكب عطارد، مهيباً مثل الشمس، هذا المخلوق المتميز الخالي من كل شائبة، بوجه وجبين متألقين- نور على نور! ونظرة واحدة منه تملأ العالم بالنور، وكلمة واحدة من فمه، تجعل الثناء عليه يتجاوب ويتردد صداه من كل حدب وصوب.

وما إن رأته زليخا، حتى كان الأمر مثل شرارة وقعت على قصب يابس. أخذت بيده وقالت: "أيها الشاب الطيب القلب، يا سليل الناس المتميزين المحبوب! والله إنك لشاب معجزة، تستحق كل احترام وتقدير! إني لشديدة السعادة بكل خدماتك الممتازة، لذا فبدوري أحس أني مدينة لك، تعال معي لكي أريك امتناني منك وأجازيك على حسن صنيعك. واليوم سوف أؤلف لحناً رخيماً أعزفه على أوتار معزف فؤادي الرقيق- حتى يصير حديث الناس إلى نهاية الزمان".

وبدأت بإغرائه لكي يدخل إلى أول غرفة من الغرف السبع. ولما وضعت قدمها عبر الباب الذهبي أقفلته بالمزلاج الحديد. وما إن أزالت ختم الصمت عن فمها حتى بدأت أسرار قلبها تنثال على فمها متدفقة سريعة: "إنك منى قلبي، والوحيد الذي تهدف إليه حياتي، منذ أن تبديت لي في الحلم في

طفولتي، سرقت النوم من عيني، وتركتني مجنونة بالرغبة إليك، وقبل أن تقع عيناي عليك، اعتزلت بنفسي هنا بسببك، ولما لم أجد عندك دواءً لحالي البائس، استسلمتُ لليأس. والآن مع أني شديدة الفرح لرؤية وجهك، فإني أحس بمرارة لما أقَابَلُ به من قسوتك، ألا تكف عن هذا البرود ؟ وعلى الأقل تلتفت إلي وتحدثني ولو بكلمة رقيقة واحدة؟"فرد يوسف، وهو شديد الارتباك: "يا زليخا، بالله الذي خضعت له آلاف الملوك عبيداً، وأنا واحد من هؤلاء العبيد، حررني من ربقة أسرك هذه – وافرحي قلبي بأن تطلقني حراً. إن ما يؤلمني هو بقائي معك وحيداً بعيداً عن الأعين، لأنك نار مشتعلة، وأنا لا أعدو كوني حفنة من قطن جاف!".

ولكن زليخا لم تلق بالاً لاحتجاجه، بل استمرت في استخدام نقاش بليغ، وتملقته لدخول الغرفة الثانية، وأقفلت بابها وراءها وأزلجته بالمزلاج – وهذا ما زاد من حذر يوسف. ومرة أخرى أخذت تبكي وهي تكشف الغطاء عن آلامها المكبوتة منذ سنوات طويلة:

"يا يوسف، إنك أعز عليّ من نفسي، إلى متى سوف تستمر في إصرارك على هذه القسوة؟ إني لأضع رأسي تحت قدميك: فهل هذا الاستعصام منك لا يلين؟ لقد أفرغت خزائني من المال لكي أشتريك، ومن أجلك رميت بالعقل والدين إلى الريح. على أمل أن أجد فيك شفاء لمرضي، ولم أتوقع في يوم من الأيام أن تكون بهذا العصيان المتمرد". أجاب يوسف: "ليس من حتّم على المرء بطاعة تنتهي به إلى الخطيئة! وكل عمل لا يرضى عنه الله سبحانه هو عقبة تمنع صاحبها من الوصول إلى محراب الطاعة والتفاني في حبه. إن الله يحرم ما يجعلني، مع سابق المعرفة والإصرار، طرفاً في عمل كهذا!".

وقطعا حديثهما بسرعة وهما يدخلان عبر الغرفة التالية، هناك وبعد أن أرتجت الباب، حاولت زليخا معاودة الحديث بطريقة ضاعفت فيها خداعها وكلماتها الساحرة، ودون كلل حاولت أن تخلق نقاشاً جديداً، وهي تمرره عبر الغرف الست- ولكن كل هذا كان غير مُجدٍ، ولكن ما زالت محاولة أخيرة في هذه اللعبة. لقد بقي أمامها الغرفة السابعة. وهنا قادته إليها – رامية حجر نرد حظها للمرة السابعة!

يجب على المرء ألا يهن عزمُهُ في الطريق، فإن حفرة ظلام الليل تفسح الطريق في النهاية لنور الصباح. ولو أُغلقت مئات الأبواب أمام آمالك، فلا داعي لأن يأكل الأسى قلبك. اقرع باباً آخر، وفجأة سوف يفتح لك، وتكون الطريق إلى هدفك واضحة!

٣٧- إدخال يوسف عليه السلام إلى المقصورة السابعة وإجباره على تحقيق مقصودها وفرار يوسف وبقاء زليخا آسفة حائرة

كشف الرواي البليغ لهذه القصة الصوفية أنه لما وصلا إلى الغرفة السابعة صرخت زليخا صرخة يأس من أعماق قلبها: "يا يوسف، أتضرع إليك، ارحمني واخطُ إلى حَرَمي الرائع!".

وقادته إلى ذلك الجناح الجميل وأغلقت أيضاً الباب مرتجة إياه بمزلاج حديد وسلسلة ذهب. لقد كان مُلتجأ داخلياً، مغلقاً عن جميع المنافذ، ولا يستطيع أحد أن يجد مدخلاً إليه ولا حتى صديقاتها. إن فيه غرفة واحدة معَدة لعاشق ومعشوق- خدود معشوق تلتمع بخجل ساحر، وقلب عاشق يقرع طبول البدء للحن الهوى، والطريق ملائمة لشهوة النفس الحسية المحترقة!

وزليخا التي كانت مخدرة القلب والحواس بلقاء الحبيب، وضعت يد يوسف في يدها، وبكثير من الإغواءات اللذيذة قادته ببطء ولباقة إلى الأريكة ورمت بنفسها عليها وبعينيها المليئتين بالدموع ناجته قائلة: "أيها الشاب الخجول، ألا من وجه باسم تديره نحوي؟ إن الشمس لو رأت وجهي المتألق، فربما ودت، كما يود القمر، أن تستعير منه نوراً، إلى متى تظل تسعدك رؤيتي وأنا على هذه الحال المزرية؟ وإلى متى تبقى مغلقاً عيني الرحمة عني؟" وهكذا باحت بكل أشواقها ليوسف، وبهذا البوح تفجر الألم في قلبها وازداد. ولكن يوسف كان محصناً نفسه، ومن خوفه من الخضوع، بقي نظره مثبتاً في الأرض- ليرى صورتهما معاً ممددة على سرير من الحرير المطرز، وقد انضما صدراً لصدر في عناق شديد، وبسرعة حول بصره عن هذا المنظر، ولكن حيثما التفت، سواء على الأرض أو على الجدران، رأى شخصيهما مصورين، بوجهين علتهما حمرة الخجل، منضمين في عناق حميم. وحتى حينما حوّل بصره إلى أعلى وقع على المنظر نفسه مرسوماً على السقف. وكنتيجة لكل هذا أحس بأنه ينجرّ نحو زليخا نفسها، ثم وجد نفسه ينظر في وجهها. فإذا بمنظر هذه الشمس المشرقة التي تنظر إلى وجه زليخا يجدّد آمالها، وبدأت تتنهد وتتأوه وتبكي. وعبر الدموع كانت عيناها تقولان:

"أيها الشاب الأناني، بلغني أمنيتي، خذني إليك وخفف عني مرضي. إني عطشى تواقة، وأنت ماء الشباب، إنني قتيلة وأنت الحياة الأبدية. منذ سنين وأنا أحترق، أذبل من شدة الشوق إليك، حتى منعني عشقي عن الطعام والنوم، لا تتركني أحترق أكثر من ذلك، ولا تدعني أتبدد من جرّاء تباريح عاطفتي نحوك! يا يوسف أستحلفك بالله، ملك ملوك العالم! بهذا الجمال الأخاذ الذي زين به وجهك! بهذا النور الذي يشع من جبهتك، ويجبر القمر على أن ينحني أمامه! بحاجبيك الأخاذين وعينيك

الساحرتين، وقوامك السروي وخصرك النحيل! بابتسامتك اللذيذة التي تلوح على شفتيك البرعميتين! بدموع الشوق في عيني، وبتهيداتي الحارقة لأسباب غيابك! بسلطان الحب العام الذي أحسه والذي سيطر على وجودي بأكمله، وأنت تتفوه بكلام مغاير لما يجعلني أحيا أو لا أحيا! أشفق على هذه البائسة التي سلبها العشق عقلها! حل هذه العقدة التي سببت لي كثيراً من الكروب والآلام!

إن قلبي موسوم بندوب لا تبرأ من شدة الرغبة لشم عطر حديقتك. يا يوسف، كن ولو للحظة هذا الشذى، نعم كن البلسم الشافي لقلبي! أكاد أهلك في مجاعة بُعدك، أتضرع إليك، رد إلي الروح على مائدة الحب!!". فأجابها يوسف، وهو ما فتئ يذكر الله تعالى قائلاً: "يا بنة الحور! يا من جمالها يخسف جمالهن! لا تضغطي عليّ بهذه القوة وتحطمي براءتي الضعيفة! لا تدنسي ثوبي بالخطيئة، لا تحرقي جسمي بنيران الشهوة! إنني أيضاً أتوسل إليك، باسم الإله الذي لا يحده وصف، بالحي القيوم والذي يتجلى بقدرته في الأشياء ظاهرها وباطنها، بالله الذي السماوات مجرد فقاعة في بحر كرمه، والشمس لا تعدو كونها شرارة أمام بهائه الساطع- أرجوك باسم الناس الطاهرين الذين أنا من سلالتهم، وإليهم يعود فضل وجود لؤلؤة الطهارة عندي وهم بشير ميلادي! فإذا بقيت بعيدة عني الآن وتركتني أهرب من هذه الحالة الخطرة، فإنني في يوم من الأيام سوف أكافئك أضعافاً مضاعفة وآلافاً مؤلفة من الجزاء. ولكن أرجوك، لا داعي للتسرع، ومن الأفضل للمرء أن ينتظر لكي يصطاد طريدة كبيرة في الشبكة، بدلاً من أن يتسرع ويعود بصيد رديء". ولكن زليخا أصرّت قائلة: "أتستطيع أن تقول لامرئ يموت عطشاً أن يتوقف عن الشرب حتى الغد؟ لقد أوصل الأمل روحي إلى حافة شفتي، فكيف لي أن

أتحمل يوماً آخر من التأخير؟ كم أتمنى أن أعرف ما الذي يمنعك من التمتع بلحظة سعادة معي؟ فقال يوسف:

"يمنعني أمران، الأول العقوبة من الله عز وجل، والثاني انتقام العزيز مني. لأنه إذا حصل وعلم عن أمور ممارستي أموراً ملتوية، فأنت تعرفين جيداً أنه سوف يعرضني لمئات الأصناف من المذلة والهوان قبل أن يحكم عليّ بالموت أخيراً. وتصوري العار الذي يلحقني يوم الحساب عندما يأتي الزناة وينالون جزاء ما اقترفوه، وخاصة إذا كان اسمي على رأس قائمة هؤلاء المجرمين في اللوح المحفوظ!". فقالت زليخا:

"لا عليك من عداوته! لأنني مقررة أنه في يوم من الأيام، عندما نكون في حالة وئام، سوف أجرعه كأساً تجعله يغرق في نشوة قد لا يصحو من ذهولها وسكرها حتى يوم الدين. وأما بالنسبة للخالق، فإنك بنفسك قلت بأنه متسامح كريم، ودائماً رحيم بالخطائين، وبذلك فإنه سبحانه سوف يغفر لك إن شاء الله". فقال يوسف:

"إني لست ذلك الرجل الذي يقبل بأن يتسبب في ألم الآخرين، وخاصة العزيز، الذي أمرك شخصياً بأن تهتمي بي. وأما بالنسبة لله عز وجل، الذي لا نقدر على نكران مننه علينا، فكيف تتصورين بأن من منحنا الحياة نفسها كرماً منه دون مقابل، ممكن أن يمن علينا بالغفران مقابل سلوك شائن إزاء هذه النعم؟" ردت زليخا:

"أيها الأمير المبارك، كل هذه الأعذار التي تكثر منها ليست سوى مكر وحيل مخادعة. إن الله سبحانه حمانا من مثل هذه الطرق الملتوية! ومن الآن فصاعداً لن أستمع إلى كلماتك المراوغة. إني في حالة اضطراب وهياج عظيم يائس، أعطني الهدوء سواء بطيب خاطر أو بغيره! هيا! أطلب إليك أن

تحقق أمنيتي ! وبتحدث ! ؟ لقد مرت أيامي في الكلام. وأنا مازلت بعيدة عن نيل ما أريده منك. تعال الآن، كفاك من مثل هذه القصص الخيالية، تقدم بجيوية، فإن الذي يتردد يكون مصيره الضياع. إن النار تلتهمني مثل الصوفان[١٦]، وربما بذلك تستطيع أن تجد فيها متعتك أيضاً. وما جدوى هذا الدخان كله إذا لم يجلب الدموع إلى عينيك؟ ومادام هنالك دخان، فلا بد أن وراءه لهيباً. تعال يا يوسف، وارم بقليل من الماء فوق نيراني.. !"وطفق يوسف يقدم مزيداً من المعاذير، حتى قالت له زليخا أخيراً:

"أنت وطرقك الملتوية في الكلام! إنك تضيع وقتي في هذا الكلام التافه البارد الذي لا معنى له! وإذا رفضتني أكثر من هذا، فإني سوف أقتل نفسي. فإما أن تطوق بذراعيك جسمي وتلامسه، أو أذبح نفسي، وبعدها ستكون مسؤولية موتي معلقة في عنقك. سوف أفصل روحي عن جسدي بقسوة وبذلك أصبح حرة من جدلياتك الكلامية. ثم إن زوجي سوف يجدني مقتولة، وأنت وحدك معي، وسوف يقرر قتلك بالمقابل. وهكذا تجتمع روحي المحترقة معك في القبر على الأقل. وفي أثناء حديثها، تناولت خنجراً خاداً رهيفاً كورقة سرو، من تحت السرير، وبقلبها المحموم الملتهب من شدة الألم، رفعت شفرته الباردة إلى حلقها الحار. فانحنى يوسف على الفور أمامها، وضغط على معصم يدها كما يضغط القيد الذهبي، وصرخ:

"زليخا ! هدئي نفسك! وعودي عن هذه الطريق العنيفة، وسوف تنالين منية قلبك مني".

ولما رأت زليخا يوسف غدا ليناً تجاهها، خيل إليها أنه على وشك أن يحقق لها أمنياتها. فرمت بالخنجر جانباً وبسرعة، اتخذت موقفاً سليماً تماماً. وتجرعت شفتاها من عسل فمه اللذيذ، وبيديها

---

[١٦]) الصوفان: مادة سريعة الالتهاب.

وقدميها تعلقت بجسده مثل عقد وحزام، وجعلت نفسها هدفاً لسهمه. ولشدة تحرقها للوصول إلى جوهرته، ألصقت جسمها بجسمه مثل الصدفة.

ولكن يوسف لن يدع السهم يطيش. أو يثقب الحرير في الصدفة، ربما أنه كان يهوى أن يثقب الصدفة بجوهرته، إلا أن الأمر له بأن يحافظ على طهارته، جعله يتراجع.

كان شوق زليخا شديداً، كشوق دائن يطارد مديناً، بينما استمر يوسف في انتحال ذرائع لنفسه لكي يؤخر هذا الوقع. ومرة تلو أخرى كانت يده تذهب لا لحل إزاره– ولكن لكي تربطه مرة أخرى.

وفجأة، وفي زاوية من الغرفة، رأى ستارة مطرزة بالذهب. فقال: "ولم هذه الستارة؟ وماذا يختبئ خلفها؟" فأجابت: "إنه ذلك الصنم المحبوب الذي أعبده على الدوام. إنه مصنوع من الذهب، وعيناه من اللؤلؤ، وفي داخله عطور المسك. لقد وضعته خلف الستارة حتى لا يرى فعلي العاق الذي أرتكبه هنا معك". وحيال هذه الكلمات أطلق يوسف صرخة عالية:

"إذا كان ورعك يساوي ديناراً، فورعي لا يساوي ولا حتى فلساً، إنك تستحين أن يراك شيء غير حي، وأنا أقف بلا حياء أمامه! ذلك الذي يرى كل شيء، إنه الله الحي الأبدي السميع البصير!

وفي أثناء كلامه، نهض واقفاً، وكأنه صحا من فراش اللذة. ثم هرب سريعاً بكل ما في وسعه من قوة. وانفتحت الأبواب أمامه، دون حاجة إلى مفتاح، فالمزاليج تحركت بسهولة بين يديه.

ومرقت زليخا في أثره، وأمسكت بتلابيبه وهو في الغرفة الأخيرة. واستطاعت الإمساك بثيابه لتجره إلى الخلف، ولكن هذا الشد قدّ قميصه من الخلف. وهرب يوسف من تلك المرأة، وهي كسيرة القلب، بقميص ممزق.

ولما تحققت زليخا من الخطأ الفاحش الذي قامت به، إذا بها تشق ثيابها وترمي بنفسها على الأرض، وهناك بقيت دون حراك تردد صرخات أليمة، وتنعى حظها السيئ. لقد هجرها منى قلبها، وأفلتت الطريدة من شباكها، ونُهب العسل من بين شفتيها. وأحست بأنها غدت كالعنكبوت في الحكاية التي تقول، إنها رأت صقراً يحط فوق غصن، بعد أن تحرر من يد الملك، وبكل كياسة بدأت العمل بنسج خيوطها حول الطائر، ظناً منها بأن هذا يمنعه من الطيران بعيداً. وبعد أن أمضت وقتاً طويلاً لهذه المبادرة، واستخدمت جميع خيوط الحرير الذي تملكه في هذا العمل. وأخيراً طار الصقر ببساطة، تاركاً العنكبوت المسكينة بلا شيء سوى بعض نتف من الخيوط. وتنهدت زليخا وقالت:

"إنني مثل تلك العنكبوت، روحي ممزقة كشباكها، وأما طائر الأمل فقد طار!".

٣٨- لقاء عزيز مصر يوسف عليه السلام خارج البيت وكتمان يوسف لما حدث بينه وبين زليخا وإفشاؤها ذلك

عندما كان يوسف يغادر قصر زليخا، إذا به يقابل العزيز وحاشيته. ولاحظ يوسف في حالة ارتباك شديد، فسأله ما الأمر فرد يوسف ببسالة، دون أن يذكر ما يثير أي شك. وأمسك العزيز يد يوسف بتودد، ثم مشيا نحو القصر. ولما رأتهما زليخا معاً قالت لنفسها: لا بد أن يوسف أخبر الوزير بكل شيء! وحين عاجلتها هذه الفكرة السيئة، رفعت صوتها قائلة لزوجها:

"أيها الحاكم العادل، ما جزاء من لم يحترم روابط الإخلاص المعقود بينه وبين سيده وخدعه متخفياً بستار السرية؟" فأجاب العزيز:

"قولي لي من هو ذلك الذي ارتكب مثل هذا الجرم الشائن؟ خبريني وتحدثي في صلب الموضوع".

فردت: "ذلك الفتى الكنعاني الذي رفعتَ منزلته من العبودية واتخذته ابناً لك. لقد كنت أرتاح بهدوء في غرفتي، دون أن أهتم بما يجري في العالم، عندما زحف إليّ فجأة كلص، لكي يسرق مني شرفي على حين غرة. إن هذا المجنون كاد يفك عقدة كنزي، عندما استيقظت من نومي العميق وتحققت ماذا كان يجري. ثم استولى عليه رعب، ولكن قبل أن يهرب، عاجلت بإمساكه من قميصه. وهذا المزق في قميصه هو بمثابة فم ناطق بالحقيقة عما أقول. والآن ما عليك إلا أن تزج به في السجن لفترة من الزمن، أو تأمر بتعذيبه حتى يكون عبرة للآخرين" .ولدى سماع العزيز هذا الكلام اشتد غضبه. وانحرف قلبه عن جادة الصواب فالتفت إلى يوسف معنفاً بقسوة: "عندما حررتكَ من العبودية كان عليّ أن أفرغ خزائني من المال. ثم جعلتك مثل ابن حقيقي لي، وخلعت عليك جميع ألقاب الشرف والرتب العالية. وجعلت زليخا رفيقة مخلصة لك، وأخضعت خدمها لسيطرتك. ووجهت الخواص من خدمي ليطيعوك كعبيد مخلصين. وباختصار أعطيتك حرية التصرف في كل ما أملك، دون أن أعارضك في شيء. والآن أرى أفعالك تخالف المنطق السليم، أدعو الله أن يسامحك لذلك العمل السيئ الذي اقترفته! وفي هذا المقر الهادئ الذي تعيش فيه ما كان عليك أوجب من أن تشكر إحسان هؤلاء المحسنين، ولكنك، وأنت تتلقى هذه النعم، برهنت أنك جاحد وعاصٍ. لقد مالحتني، وبعدها حطمت إناء الملح!!".

ولما رأى يوسفُ العزيز مستشاطاً غضباً، تمعّج وتلوى ألماً كأنه الشعرة وسط اللهيب، ثم صاح:

"سيدي! أي عدل هذا؟ وكيف يمكن لك أن تظن أني قادر على مثل هذا الجرم المهين؟ إن كل ما ذكرته زليخا لك، ليس إلا محض افتراء. وما أكاذيبها تلك إلا سِخام مصباح منطفئ. خلقت المرأة من ضلع آدم الأيسر، ولذلك لاشيء من الاستقامة يُرى في سلوكها! وكل من يميز الشمال من اليمين

يستطيع أن يفهم هذا . فمنذ اليوم الأول الذي رأتني فيه، كانت زليخا تلاحقني بطريقة مراوغة، محاولة أن تفرض رغبتها علي، لقد حاصرتني من جميع الجوانب بكل وسيلة من التخطيط الماكر، ولكني لم أنظر إليها أبداً نظرة شهوة لكي أقترب منها . من أنا حتى أقابل كرمك بهذا ؟ على حين أنه من الواجب علي ألا أجرؤ على وضع قدم خائنة في قسم حرمك ؟ فليصب الويل كل رجل يحاول أن ينتهز فرصة غياب سيده لكي يذهب ويجلس على عرشه !

وبصدري الذي يجيش بوخز الحسرات من نفيي بعيداً عن أهلي، كنت جالساً بهدوء في إحدى الزوايا، عندما أرسلت زليخا رسولاً في طلبي وأدخلتني في مئات من المشاكل، وبسلسلة من التخطيطات والحيل أقنعتني أن أذهب معها إلى هذا المكان المنعزل، حيث حاولت معي أن أشبع رغباتها . لقد انزعجتُ كثيراً من هذا العرض حتى أني سارعت إلى الباب حتى وصلت إلى هنا غارقاً في حيرتي، ولكن كما يمكن أن ترى بنفسك لقد تمسكت بقميصي وشقته. وهذا كل ما جرى بيننا . وإذا لم تقبل حجتي وتأكيدَ براءتي، فهاأنذا أقول: بسم الله أفعل بي ما تشاء !".

ولما سمعت زليخا هذا الكلام بدأت تحلف بأنها بريئة! حلفت أولاً بالله، ثم حلفت برأس الملك، ثم بالعرش والتاج، ثم حلفت بشرف الوزير ومجده. لأنه هل هناك من مصدر شهادة آخر في مثل هذه الحالة، حيث لا يوجد شاهد ؟ إنه لقسم عظيم! وكلما ازدادت الأيمان، ازداد الشك بأن هذا الحلف كاذب. ثم بعدها أضافت إلى هذه الأيمان المغلظة دموعها، وهي ما تزال تؤكد أن يوسف كان المحرض على حصول هذه الفضيحة منذ البداية. والدموع هي الزيت المناسب لمصباح الأكاذيب، والنار التي تتقد بفعل هذه الدموع، قادرة على أن تشعل العالم كله بالحرائق.

٣٩-العزم على أخذ يوسف إلى السجن وشهادة طفل رضيع براءته

وتوقف العزيز عن محاولة تحري الأمر بعد أن خُدع بالدموع والحَلف. وأعطى أوامره بأن يزج يوسف في السجن حتى حين، حتى ينجلي الأمر ويستبين السر.

وحين كان يوسف يُقتاد إلى السجن، كان قلبه مفعماً بالألم من شدة وقع المصائب عليه في هذا المكان المنعزل، وفي داخله بدأ يتجه إلى خالقه ويدعو قائلاً:

"إلهي، يا عليماً بكل ما خفي من الأسرار، ومنك حصل الأولياء على المعرفة! يا من لا يأتمن المزيفين على الحقيقة. ومن غيرُك قادر على بيان جلية هذا الأمر؟ أنت تعلم أني قد اغتسلتُ بنور الإخلاص، فلا تدعني هكذا عُرضة للشك من الذين يقولون الكذب! أرجوك يا إلهي، أظهر شاهد براءتي التي تجعل من إخلاصي برهاناً واضحاً مثل ضوء النهار!".

ولما انطلق سهم الدعاء هذا بقوة من وتره المشدود، فقد أصاب هذا السهم هدفه، إذ كانت هناك امرأة في حاشية زليخا، ومعها طفل في الشهر الثالث من عمره. هذا الطفل الأبيض بياض الزئبق، لم يفه بكلمة بعد- أو يقرأ أي حرف في كتاب. والآن وعلى نحو مفاجئ، إذا به يصرخ بصوت عال:

"أيها العزيز، تأن وامشِ بتؤدة، حذار من العقوبة المتسرعة، يوسف لا يستحق أن يعاقب، بل يستحق أن تكرمه وترحمه!". وأرتج على فم العزيز بهذه المعجزة، فتحدث إلى الطفل بأدب قائلاً:

"أخبرني، يا من أنطقك الله بالفصاحة وما زالت شفتاك رطبتين من حليب أمك، من الذي أشعل هذه النار التي أحرقت سدول الستر على شرفي وهيبتي؟ أجاب الطفل:

"لست من بعض الجواسيس المتزلفين الذين يفشون أسرار الآخرين، ولكن هناك أمراً واحداً لم تأخذه بالاعتبار. انظر جيداً وتمعن في وجه يوسف، ثم انظر كيف أن قميصه ممزق. ولو كان القميص ممزقاً من الأمام فزليخا في هذه الحالة غير ملومة، ويوسف في هذه الحالة يكذب لينقذ نفسه، ولكن إذا كان الشق في الخلف، فيوسف بريء، وزليخا قد حلفت كذباً!

وأخذ العزيز على الفور بالنصيحة وفحص القميص، لقد كان ممزقاً من الخلف! وهنا بدأ ينحو باللوم على تلك المرأة الخائنة:

"كان علي أن أعلم بأن هذه كانت إحدى حيلك، وأنها فكرتك لكي تتسببي بالسجن لذلك الشاب الطيب، وكانت هذه خيانة حقيقية- ومؤلمة جداً لنفسك- أن تضلي عن طريق الشرف والسمعة الطيبة بأن تجري وراء أحد عبيدك! ولم تكتفي بأنك ارتكبتِ مثل هذه الفعلة الشنعاء. بل إنك ألقيت باللوم عليه!

حقاً إن خداع الأنثى شيئ يؤلم القلب، إنه يجعل السّيئ فاضلاً ويستعبد الحكيم. والآن أقلعي عن هذا، واستغفري الله لذنبك. أديري ظهرك إلى الجدار خجلاً، وبدموع حارقة اغسلي هذه الخطيئة من كتاب حياتك! وأما أنت يا يوسف، فاحفظ لسانك عن هذه الحادثة واختم على شفتيك، ولا تدع أحداً يعرف عنها شيئاً، وبراءتك وطهارتك كانت أبلغ مبرئ لك. فلا تمش في طريق الافتراء، ومن الأفضل أن تسدل ستاراً على هذه الحادثة من أن تمزق الستر إلى شقين".

٤٠- إطلاق نسوة مصر ألسنتهن بالطعن على زليخا وقطع سيف غيرة العشق أيديهن وألسنتهن

ليس للحب وقت يرتاح فيه في أمكنة هادئة، بل إنه يرحب حتى بسوء السمعة واللوم، واللوم يجدد أحزان الحب على نحو ثابت، حتى يصيح المحب بصوت عال من شدة الألم. اللوم هو المدير المراقب في سوق الحب، لكي يحافظ عليه لامعاً خالياً من الركود، فيهاجم ويقتحم من كل مكان، ويجلد الكسالى النائمين.

حين تفتح سر زهرة زليخا كان الافتراء الذي تبعها عالياً مسموعاً كتغريدة العندليب من غير ريب، وحينما سمعت سيدات مصر بهذا الخبر بدأن ينشرن الإشاعات والفضائح هنا وهناك في الأمكنة البعيدة. وكل ما فعلته زليخا، سواء كان حسناً أو سيئاً صار هدفاً لأحاديثهن وملاماتهن:

- لقد أصبحت زليخا غير آبهة بسمعتها على الإطلاق. لقد أصبحت سكرى حتى العظم غراماً بعبد كنعاني- مسلوبة العقل إلى درجة أنها أزرت بنفسها وتركت التعقل والدين!

- ياله من زيغ لا يُصدق. أن تصبح مفتونة بخادمها الخاص!

- ولكن هناك جانب لا يقدر بثمن. إن هذا العبد نأى بنفسه عنها تماماً، ورفض أية علاقة معها. ولم يرفع بصره إليها أبداً، ولم يحاول أن يخطو خطوة واحدة تجاهها فإذا مشت، أخلى لها الطريق وتوقف احتراماً! وإذا توقفت تابع سيره، وإذا ألقت بخمارها جانباً، فإنه يثبت عينيه مغمضتين بأهدابه. وإذا بكت ضحك. وإذا فتحت باباً أغلقه هو بنفسه.

- الأمر ببساطة إنه ربما لم يجدها جميلة أو جذابة.

- أجل، ولكن، إذا كان هذا الفتان سيقضي معنا ولو لحظة، فلا نعتقد أنه سيرحل عنا، كما فعل معها، أو يحاول أن يضرب بإرادتنا عرض الحائط.

- أبداً، معنا سوف يمتعنا ويجعلنا مسرورات وفي نفس الوقت يمتع نفسه بذلك.

- ولكن ليس عند كل امرئ القدرة على الجذب العاطفي. هناك كثير من النساء يملكن الوجه الجميل والصفات الرائعة ولكنهن غير قادرات على إلهاب الرجل بالحب.

ولما سمعت زليخا هذا القال والقيل التافه في حقها، أرادت أن تعرّض أولات النسوة الظالمات للعار والمهانة، وعلى الفور أمرت بإعداد حفلة ودعت إليها الوجيهات من نساء المدينة. حفلة؟ ماذا أقول؟ لا، إنها وليمة ملكية، يقدم فيها كل ما يمكن تصوره مما لذ وطاب، ومن المشروبات من كل صنف ولون يومض لامعاً في أقداح من (الكريستال). وفي وسط أرض الغرفة، وعلى مفرش من قماش مذهّب يلتمع كالشمس، وضعت مجموعة من الصحون الفضية فبدت وكأنها في دائرة البروج.

وأعطت الروائح وطعم المأكولات اللذيذة قوة ونشاطاً للروح والجسد. لم ينقص من المائدة أي نوع من أنواع من اللحوم- من الأسماك إلى الطيور. وبالنسبة للحلوى التي يُختتم بها الطعام، صنع منه على شكل قصر من رقائق الحلوى مفروشة بالسكر والمهلبية، وهناك قطع من كعكة اللوز- كبيرة جداً لأجل أولات السيدات ذوات الأفواه السليطة، والأمزجة صعبة الإرضاء- وأعدت فواكه لذيذة ذات ثمار مليئة باللبّ لشدة نضجها امتلأت بها السلال.

وعلى كل جانب وصفاء وخادمات يتبخترون إلى الأمام وإلى الوراء كالطواويس استعداداً لأي طلب، بينما أولات الجميلات، سيدات مصر، جالسات على شكل حلقة ومتكئات على أرائك وثيرة

من القماش المقصب، يتناولن من جميع المأكولات حسب الآداب المتبعة. ولما انتهين، ورفع الطعام جميعه، وزليخا تغدق عليهن كثيراً من الكلمات اللطيفة والمجاملات لتسرّهن - أمرت أن تعطى كل واحدة منهن سكيناً حادة، ثم قدمت لهن فاكهة البرتقال- تلك التي بسبب لونها توصف كشفاء لحالات مرضى اليرقان - ثم قالت لهن جميعاً:

"ضيفاتي الفاتنات، يامن تجلس كل واحدة منكن في مجلس الشرف في مأدبة الجمال هذه، أخبرنني لماذا لمتنني بقسوة على الحب الذي أكنه لوصيفي الفتى؟ إنني واثقة بأنكن سوف تعذرنني حين تستنير أعينكن برؤيته!" أجبنها بصوت واحد منسجم:

-هذا على وجه الخصوص ما نرغب فيه! دعيه يظهر أمامنا! ولن نتناول برتقالنا حتى يصل يوسف.

وأرسلت زليخا وصيفتها إلى يوسف برسالة قائلة:

"تعال إلينا، ياذا القوام السروي النبيل، حتى نسجد أمام هيبتك وطلعتك البهية- جعل الله أعيننا صوى في طريقك!" ولكن يوسف رفض المجيء، لأن وردته رفضت أن تتفتح على صداح هذه الوصيفة، فكان على زليخا أن تذهب وتجلبه بنفسها. كان وحيداً في غرفته، فناشدته قائلة:

"يا نور عيني، ويا منى قلبي المعذب، لقد أعطيتني الأمل أولاً، ولكن هذا العطاء كان لكي تغطني في اليأس أخيراً. والآن، بسببك تلوث شرفي وأصبحت محتقرة بين أهل المدينة. لقد تأكدت الآن أنني كنت رخيصة في عينيك، وغير مهمة إذا ما قورنتُ بك، ولكن مازلت أرجوك ألا تذلني أمام السيدات المصريات!". وانصهر قلب يوسف لدى سماعه لتوسلاتها الحارة، فأذعن لطلبها بأن يذهب معها. وبسرعة الريح ألبسته ثياباً أنيقة حتى غدا كشجرة سرو مكسوة بكساء أخضر، وانتثرت فوق الكساء

غدائره المعطرة متدلية على كتفيه، مثل حية زاحفة على مرج أخضر. ثم أعطته حزاماً ليتمنطقه مصنوعاً من الجلد المذهب ومزيناً بكثير من الجواهر التي يُستغرب هل ثقلت عليه أم لا؟ وعلى رأسه وضعت تاجاً مرصعاً بحجارة كريمة. كل هذا عزز مظهره العام وفتنته أكثر فأكثر، كما انتعلت قدماه حذاءين مزينين بالجواهر أيضاً، ذوي رباطين تدلى منهما حبات من اللؤلؤ. ثم حمّلته في يده إبريقاً ذهبياً، وأمرت إحدى وصيفاتها من الخدم، والتي بدورها ألبستها عصابة ذهبية على جبينها لكي تحمل وعاءً فضياً، بأن تتبع خطواته مثل ظله.

ومن رأى يوسف في مظهره الأنيق فسوف يقول سلام على الراحة والهناء والحياة الهادئة! قد لا أكون وفيته حقه من الوصف فيما قلته، لأنه يفوق كل ما أستطيع أن أقوله.

وهكذا ظهر هذا الكنز المخفي من مخبئه. وتطلعت سيدات المدينة إليه بنظرة واحدة، وكانت هذه كافية لأن يفقدن صوابهن تماماً. لقد جفت عروق أيديهن وفقدن السيطرة عليها وصُعقن وتجمدن أمام هذا الحسن الهائل.

والآن في تلك اللحظة كانت كل منهن على وشك قطع برتقالتها بالسكين، ولما اشتدت حيرتهن لدى رؤية يوسف لم يعدن يميزن بين الفاكهة وبين أصابعهن، فإذا بهن يقطعن أيديهن. وفي تلك اللحظة أدركن أن يوسف لم يكن سوى جوهرة نادرة كاملة من الحسن، فصحن بصوت عال ﴿ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم!﴾ وانتهزت زليخا الفرصة لتقول:﴿ فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ وجعلتنني مضغة في أفواهكن. إن هذا الجسم اللطيف هو الذي كبّدني عناء عذلكن ومع ذلك، ورغم كل توسلاتي أن نكون معاً قلباً وروحاً وجسماً فإنه لم يقبل أن يحقق حلم حياتي الطويل أو يخضع لرغباتي.

ولكن الآن، إذا استمر في إصراره على رفض ما طلبت منه بهذا الازدراء فإني سوف أسعى إلى وضعه في السجن، وهناك سوف يقضي بقية حياته في زنزانة، تحت التعذيب والإذلال والتحقير. إن السجن سوف يلين شخصيته العنيدة، فلربما يجلب بعض المزاج الحسن والحرارة إلى قلبه. وهذه هي الطريقة الوحيدة لترويض هذا الطائر الكاسر، أن تحبسه في قفص!".

وأما ضيفات زليخا بأيديهن التي تنزف دماً، فقد كن في حالات مختلفة، بعض منهن أُخذن وأُصبن بهياج عقلي شديد، مشاعر وأحاسيس، إلى درجة أنهن كن غير قادرات على رد سيف الحب، حب يوسف عنهن. وهنا وهناك أخريات أسلمن الروح.. ! وأخريات أصابهن مسّ من الجنون ذهب بعقولهن من شدة الانبهار بهذا الملاك، فهُرعن هائمات على وجوههن بأقدام حافية ورؤوس مكشوفة، ولم يعد إليهن الوعي أبداً. وقليل من عاد إليه رشده منهن، ولكن من الآن فصاعداً صرن مثل زليخا، شريكات في حُرَق الحب وجروحه، لقد شربن من كأس يوسف، فأصبحت قلوبهن عالقات بشباك يوسف!

لقد كان جمال يوسف كالصهباء التي لها تأثير مختلف على مزاج كل شخصية. فمنهم من تجعله في حال سكر طافحة، وآخر يهرب كلياً من خداع الوجود، منهم من يعني له أن يخضع حياته وروحه في خدمة يوسف، وآخر يضيع مرتجاً عليه في تأمل صورته. ولكن الوحيد الذي يستحق الشفقة هو الذي لا تؤثر فيه تلك الخمرة أبداً!! كلما ازداد الطلب على السلعة، كلما كان الشاري شديد الانجذاب إليها. وكذلك العاشق عندما يقع في العشق بجنون، ربما استرد هدوء نفسه بهذا العشق، ولكن يحتاج فقط إلى منافس على حبيبه يظهر أمامه، فإذا بعواطفه تلتهب من جديد. وهكذا حصل لدى ضحايا حسن يوسف حينما جهرت هذه الشهادة الصامتة ألا وهي جماله، بالعذر في حبه، تجدّد حماس زليخا الهائج،

وصار حبها ليوسف أقوى مما كان. فقالت للسيدات الجميلات اللواتي، لمجرد ظهور يوسف قطعن أيديهن بسيف الحب:

"إذا كنتن حكمتن على حبي ليوسف بأنه مقيت، فاكففن عن شجبي. وإذا كنتن صديقاتي فتصرفن معي كصديقات وساعدنني". وضربن جميعهن على وتر العاطفة، وعزفن لحن الاعتذار وقلن لها:

"إن يوسف لهو الملك المستبد في مملكة الروح، وجميع الذين يلقون عليه نظرة يجب أن يسلموه قلوبهم، ولو كانت هذه القلوب من حجر، وإذا كان مرضك قد سببه لك تألمك من أجله، فإن جماله يعتبر عذراً كافياً. وليس من أحد تحت قنطرة السماء استطاع أن يرى وجهه إلا ويقع في حبه بجنون. وإذا خضعتِ لمثل هذا الحب الأليم، فإنك لا تستحقين اللوم ولا العقاب، فالمجرة التي دارت كثيراً حول الأرض، لم تبصر كائناً أكثر قيمة من الحب! جعل الله قلبه الحجري في النهاية يلين لكِ، ويصير خجلاً من قسوته!!"

٤١- التماس نسوة مصر العذر لزليخا بعد مشاهدة جمال يوسف عليه السلام وحثهن يوسف على الانقياد لها وتهديده بالسجن

ثم انقلبن إلى يوسف وأخذن يرهقنه بالكلام قائلات:

"يا أيها الروح الغالي، يا ذا القميص الذي تمزق دفاعاً عن سمعتك! إنك في هذه الحديقة الوردة الوحيدة التي تفتحت دون شوكة. ولكن لا تنسب هذا التمنع الهام إلى منزلتك العالية، وتدعي أنك لا تستطيع أن تخطو خطوة تنازلية عنها، ولو قليلاً.

أيها الفتى الطاهر، لقد جعلتْ زليخا من نفسها تراباً في طريقك، فإذا أبحت لحافة ثوبك أن يتدلى ويتجرجر على ذلك التراب من وقت لآخر، فهل أنت والحال هكذا منقوص القَدْر؟ إنها تتمنى منك ولو تفضلاً واحداً، فهلا تستطيع تحقيقه لها؟ وإذا كانت حاجتك الوحيدة هو أنك لا تريد شيئاً، فلا ترفض أن تساعد من هم بحاجة إلى هذا الذي ترفضه. ومادامت زليخا مخلصة لك فلا تتردد في أن تريها بعض الامتنان مقابل ذلك، بأن تتلطف بالاستماع إلى توسلاتها، ولا تحاول أن تبدي احتقاراً لها إلى هذا الحد. لأني أخشى، أيها الشاب المغالي، أنه إذا أصررت على عصيانها، فإن عنادك ينتج عنه نتائج وخيمة وربما تمسح زليخا حب جمالك من قلبها، وتسحقك بقسوة تحت قدمها!

إنها تتهددك على الدوام بالسجن- المكان المهين للمجرمين الذين حكم عليهم بالتعذيب والموت. إنه مثل القبر الضيق المظلم كطاغية، والذي يهرب الأحياء بعيداً عنه، هواؤه ملوث ولا يمكن استنشاقه، حيث أن الذي بناه لم يترك منفذاً للهواء أو الضوء، والأرض من تحت القدمين تنتج كل أنواع الحشرات وكل نوع من الإفساد. وأبوابه مرتجة برتاج اليأس، ولا يرى منه نور الفجر، إنه مظلم ضيق مثل زجاجة القار. قيود وسلاسل هي الفرش الوحيد الذي يملكه النزيل، وإذا كان هناك شيء وحيد يتخم به المرء إلى حد بعيد- هو والنزلاء ضيوفاً على مائدة خالية حتى من الخبز والماء- فهو الحياة نفسها. إن الحراس العبوسين الشرسين، يعذبون سجناءهم ويوبخونهم بسخرية وقسوة، وكل خط على حواجبهم المعقودة ينذر بالويل والثبور والتعذيب، وطبيعتهم الشريرة أوقدت النار في العالم كله، فسوّدت وجوههم تلك النيران! ولا بد من التفكير هل يجوز لمثل هذا الجحيم أن يحتوي مثل هذا المخلوق الجميل الأخاذ، مثلك؟ من أجل حب الله، وفر على نفسك مثل هذا العذاب، وافتح لزليخا باب أمنيتها! وإذا تعبت

منها أو مللت، أو إذا لم يكن جمالها قد راق لك بشكل خاص الأمر سهل، أبعد نفسك عنها وتعال إلينا . تمتع بعلاقتك معنا بدلاً منها، لأننا جميعاً جميلات لا يضاهينا أحد، مضيئات كالأقمار في سماء الهيبة. وبجانبنا، تعتبر زليخا لا شيء بل نُزري بجمالها . ومن تكون زليخا مقارنةً بنا ؟"

ولما سمع يوسف هذا الكلام الخادع، أشاح بوجهه عنهن برعب، ورفع راحتيه إلى السماء متضرعاً إلى الله داعياً بهذا الدعاء:

يا رازق الفقراء والمعدمين! ويا ملاذ الأبرياء ! ورفيق الوحيدين ! مصباح سعادة المظلومين- والمنتقم من الشريرين ! هؤلاء النسوة ألقين بي في حيرة تامة، وإني لأفضل السجن على رؤيتهنّ، وأن أقضي في السجن مئة سنة في زنزانة على أن أنظر إلى وجوههن، ولو للحظة، لأن النظر إلى محرم يعمي القلب ويلقي به بعيداً عن جنة المأوى في حرمك الآمن. احفظني من شباك تلك المخلوقات الشريرة اللواتي شردن وضللن عن طريق الفضيلة والحكمة! واللواتي ما فتئن يضغطن عليّ عن قرب- حتى لا أضيع وأصبو إليهن !"

وهكذا قاوم يوسف تملق أولات النسوة الجميلات اللواتي قطعن أيديهن، أولات الوثنيات العاشقات لأوثانهن عشقاً أعمى. وهن لسن إلا كخفافيش ليل تطير دائرة حول تلك الشمس المضيئة- وما يملكن إلا قليلاً من الأمل في أن ينلن شيئاً من حب يوسف ووصاله.

وبعدها انقلبن إلى زليخا يائسات وحاولن أن يضغطن عليها ويحرضنها على زج يوسف في السجن:

"إن رفيقك البائس هذا، والذي عومل بقسوة، والذي يستحق أن يُحب ويعشق، لمحبط للأمل على نحو موجع. إن جماله لايقارن حتى ببنات الحور، ومع ذلك لا تستطيعين أن تتوحدي به. لقد

حاولنا معه كل الوسائل بكل قوتنا لكي نحرك عناده، ولكن نقاشنا الطويل معه لم يستطع أن يفل من عزمه لأنه قوي كالفولاذ.

هيا ! عليك أن تذكي النار في أتون السجن حوله، فلربما أن عزمه الحديد يلين في الكير، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يستخدمها الحداد في معالجة الحديد الصلب، إذ ما نفع الضرب في حديد بارد ؟"

وسمحت زليخا لنفسها أن تقتنع برأي صاحبات هذه الألسن الذربة، بأن الزج في السجن قد يُجدي في امتلاك حبيبها.

وهكذا بحثت عما يريحها فكانت النتيجة زجه في السجن، فقررت أن تخبئ كنزها في خرابة مهجورة. حينما يكون الحب غير مكتمل، يصبح الشغل الشاغل للعاشق أن يحقق رغباته. وعندما يحب أحداً، فإن كل ما في طريقه يكون لصالح نفسه هو وكل ما يقوم به تمليه عليه الأنانية، مثل من يريد الحصول على العطر من وردة واحدة من حديقة المحبوب، فلا يبالي أن يخز حبيبه بمئة شوكة !

٤٢- حض نسوة مصر زليخا على إدخال يوسف عليه السلام السجن وامتثالها

وفي إحدى الليالي عندما كانت زليخا وحيدة مع زوجها العزيز، باحت له بكل أحزانها ومتاعبها الدفينة قائلة:

"لقد فقدت سمعتي في المدينة، وسقطت في الهاوية بسبب هذا الصبي. وجميع الناس، نساء ورجالاً، الكبير منهم والصغير، يقولون بأنني وقعت في حبه- وأنه أصابني بسهمه حتى تلويت من الألم وتمرغت في التراب مضرجة بالدماء ! إنهم يقولون بأن قلبي مجرح برشقات سهامه التي أطلقها علي، وأن رؤوس حرابه مزدحمة يلامس الواحد الآخر. وباختصار إنهم يقولون عني بأني مسلوبة العقل تماماً من

جراء حبي له. وأعتقد أنه من الأصلح لإزالة جميع هذه الشكوك أن يوضع هذا الشاب في السجن، وعلى المنادي أن يعلن على الملأ بلاغ التشهير به. وإذا رأوا استقامتي الغاضبة فإنهم سوف يزيلون شكوكهم المفترية من نفوسهم". ورأى العزيز بأن هذه فكرة ممتازة فقال:

"بعد أن قلبتُ في الأمر وتأملتِ المشكلة فترة طويلة، لم أجد حلاً أفضل من هذا. سوف أضعهُ بين يديك لتعامليه كما تشائين، وأنت حرة بأن تمسحي حتى أثر غباره عن طريقك".

وهكذا تسلمت زليخا تفويض العزيز لها بأن تفعل بيوسف ما تشاء، فأطلقت لجام الخيانة تجاهه، وذهبت إليه قائلة: "يا منى قلبي، يا أيها المثال النادر لروحي، إن الوزير الكبير قد أعطاني الصلاحية وأطلق يدي فيك، وأستطيع إذا أردت، أن أضعك في السجن، أو أرفع منزلتك إلى الأعالي. استسلم إلي، فما نفع أن ترفض بعناد؟ اخضع لي عن طيب خاطر! وإلى متى تستطيع مقاومتي؟ حاول أن تنسجم مع إرادتك معي، وخلصني من الألم! وخلص نفسك من الإذلال! وإذا حققت لي أمنيتي، فسوف أحققها لك أيضاً وأرفع اسمك عالياً إلى برج العظمة، وإذا لم يكن ذلك، فالسجن ينتظرك مع مئات من الإهانات. ومن المؤكد أنه من الأفضل لك بكثير أن تعبث هنا معي من أن تذبل في السجن؟"

وألقى يوسف رده على الفور... ! والقارئ الحصيف يعرف ماذا كان الرد !

وحين ازداد اضطرابها لإجابته المخيبة لأملها، أعطت زليخا الأمر لرجالها المسلحين القُساة أن ينزعوا التاج الذهبي من رأس يوسف وأن يلبسوه ثوباً من الخيش، وأن يضعوا الأغلال الحديد حول قدميه الغضّتين. وبربقة الذل والخضوع، وحلق الحديد الموضوعة حول رقبته، صعد إلى ظهر الدابة وطيف به في شوارع المدينة! كان يتقدمه منادٍ يصيح بالناس:

"أي عبد عاص أو وقح يدوس بساط سيده بنية دنيئة يستحق أن يرمى به في السجن على نحو مذلٍ مثل أي مجرم آخر! ولكن الجماهير الذين تجمعوا على جوانب الطريق لكي يروه، صرخوا جميعاً:

"يأبى الله أن يكون بمقدور مثل هذا المخلوق الجميل أن يقوم بهذا الجرم، أو أن يكون فاتن القلوب هذا قد سبب الألم لأي قلب آخر! إنه ملاك، صيغ من طينة الطهارة، فكيف يستطيع الملاك أن يقوم بعمل الشيطان؟ إن الإنسان الجميل ينأى بنفسه عن الشر، فجمال الوجه هو انعكاس لصفاء الضمير، كما يقولون!".

واقتيد يوسف إلى السجن، وأُسلم إلىَ حراس غلاظ دأبهُم تحقير مساجينهم. وعندما دخل الشاب بقلب مليئ بالحيوية، أحس بقية السجناء وكأنهم عادت إليهم الحياة، وأن مكان الآلام والعناء هذا أصبح مليئاً بالانتعاش، وصدرت عنهم ضجة عظيمة، لأن ملك الجمال اقترب منهم، لقد قعقعوا سلاسلهم من شدة الفرح، ولم تعد هذه القيود عبئاً عليهم بعد الآن. لأنه حيثما تحل الطبيعة الملائكية، فإن جهنم بذاتها تتحول إلى جنة، ولهيب النار يتحول إلى جنة ورد.

وبعد أن هدأت الأمور إذا بزليخا تصدر أوامرها إلى السجانين أن لا يجعلوا يوسف عرضة لإهانات أو إزعاج داخل السجن. فأزيلت عنه القيود، واستبدل الخشن من الثياب التي أُلبسها بثوب مطرز. ثم وضع في مكان خاص، جيد الإضاءة، مفروش بالسجاد.

ولما أصبح وحيداً في غرفته، سارع إلى فرش سجادة صلاته واتجه إلى زاوية القبلة، وشرع يصلي كعادته. وعلى كل إنسان فاضل جدير بحمل الاسم في قلبه أن يكرس نفسه لهذه الحالة، شاكراً ربه على نعمة عزلته وأنه على الأقل هرب من مكائد أولات النسوة!

لا يعتبر الألم ألماً ذلك الذي لا يمنحنا عبيراً ذكياً من الكرم الإلهي، وهذا العبير هو الذي يجلب الراحة لضحايا الفواجع الذين أصابتهم الآلام المروعة.

لقد فُطر الإنسان على الغفلة على نحو غريب، وهو أيضاً غير قادر على شكر خالقه على نعمائه. فهو يمضي حياته كلها متمتعاً بنعم كثيرة متنوعة، ولا يقدر قيمتها إلا إذا حرم منها، وكثير هم العشاق الذين تحملوا الفراق بشجاعة، وتصوروا بشغف بأنهم أتخموا بالمحبوب! ومع ذلك عندما تبرق لهم السماء بنار الفراق، فإنهم يصبحون كالقناديل، أجسامهم تنفق وأرواحهم تحترق.

في حين بالنسبة للسجناء، فقد كان فضل حضور يوسف بينهم مبهجاً، لقد تحول السجن الذي كان هدفاً لتعذيبه إلى حديقة ورد، في نفس الوقت الذي وجدت زليخا بيتها قد صار أشد ظلمة من زنزانة، لأن يوسف غادره. أجل لقد ضاعف غيابه عنها آلامها مئات المرات.

٤٣- ندم زليخا على سجن يوسف عليه السلام وبكاؤها على فراقه

هل هناك شيء أشد إيلاماً على نفس عاشق مشوق من أن يرى مكان معشوقه خالياً منه؟ أية راحة يمكن أن يحس بها المرء في حديقة اختفت منها ورودها ولم يبق فيها سوى أشواك حادة تؤلم طيورها وعنادلها؟

والآن حينما رأت زليخا حديقتها فاقدة زهورها الجميلة، قامت بتمزيق ثيابها، كبرعم ينفجر بالتفتح. ففي الحزن والتفجع تكون روح العاشق جاهزة للانعتاق، فما يضير أن تكون الياقة ممزقة؟

لقد أنشبت أظافرها في خديها، ونبشت غدائرها السود العطرة. وصار قلبها يدق بشدة في صدرها كضربات الطبول التي تنادي بالتراجع مشيرة إلى هزيمة ملكة الجمال هذه. ثم شرعت تحثو

التراب على رأسها براحتيها، واختلط التراب بدموع مالحة من عينيها، وصار إلى ما يشبه عجينة طين- بها حاولت أن ترأب صدوع قلبها البائس. وصارت تعض شفتيها القرمزيتين حتى أدماهما، وتلطم وجنتيها الورديتين إلى أن ظهر عليهما لون الأزرق الغامق، وصارت تولول وتقول: "من الذي يفعل فعلتي هذه؟ لقد أدميت عيني بيدي هاتين، وفي عمايتي هذه ألقيت بنفسي؟ إن قلبي لينزف دماً حين أتذكر ذلك التصرف القاسي الذي أنزلته بذلك المخلوق البريء الجميل. إن نزوة القدر قلبت سعادتي، وبشكل عابث أبعدته عني. إن قلبي في حيرة كلية، ولا أدري ماذا أفعل لكي أداوي جرح الروح!".

كل شيء كان ليوسف في المنزل يثير الآهات من أعماق قلبها. مرة تلو الأخرى كانت تمسك بالقميص الذي لامس جسد حبيبها، وتحاول به أن تخفف لهيب نفسها بأن تتنشق رائحته الزكية، وبمئات من الآهات كانت تقبل ياقته وتضمها إلى نفسها أو تدخل يديها في كميه لألمها من عدم استطاعتها تقبيل يوسف شخصياً. وإذا وقع بصرها على نعليه وهما موضوعان جنباً إلى جنب، امتلأ قلبها بأمنيات أن تكون إلى جانبه، وأصبح فقدانها للحبيب أمراً لا يطاق. وتجددت آلامها في كل لحظة لأن كل شيء تنظر إليه يغطها في الحزن مرة أخرى.

وكلما تحققت من النعمة العظمى التي كانت لها في التمتع بمشاهدة المحبوب، كلما انصهرت نفسها في لهيب ألم غيابه عن عينيها أكثر فأكثر. كيف لها أن تتحمل حرمان رؤية مثل هذا الجمال؟ وكيف لها أن تُخرج هذا الحب من قلبها؟ إن الفراق عن الحبيب هو ضربة قاصمة للعاشق، وخاصة بعد اعتياد اللقاء والرؤية. إن مجرد العزلة ألم مؤلم، ولكن الفراق بعد الصداقة الحميمة التي عقداها لهو عذاب سرمدي. وغدت زليخا ضائقة بنفسها، وحاولت أن تتخلص منها. ومادامت الوسائل الخيرة لا تنفع فقد فكرت

أن تختار العكس، أتضرب رأسها بالحائط أو بالباب، أو تغمد بخنجر حادة في صدرها، أو تصعد على السطح لكي ترمي بنفسها منه، أو تلوي غدائرها السود الكهرمانية في حبل وتشنق نفسها ؟ ولكن وصيفتها بدأت تغمرها بوابل من القبلات وتدعو لها من كل قلبها قائلة: "حقق الله أمنيتك بأن يكون مذاق شفتيك قبلات حبيبك ! وأن يصبح قدحك طافحاً بالسعادة، وأن يحررك من آلام الفراق، حتى لا تتذكري شيئاً منها ! ولكن عودي إلى رشدك لحظة، فإلى متى يستمر هذا الجنون؟ لقد جعلت قلبي المسكين يتقطر ألماً وينزف دماً، ومنذا الذي يصبر على رؤية هذا التصرف ولا يحزن؟

اسمعي جيداً، إنني خبيرة في أمور الحياة والحب، إن الصبر هو الحكمة الوحيدة في مثل حالتك هذه. وقلة صبرك جعلك تقعين في هذه الحمى الملتهبة. والآن عليك أن تطفئي اللهيب عندك بالماء المنهمر من سحب الصبر. وعندما تمر عاصفة الآلام، لا يجوز أن تدعي نفسك تنجرف بها بعيداً مثل قشة صغيرة، بل انسحبي إلى داخل نفسك، وابقي دون حراك ثابتة كالجبل. الصبر هو المادة التي يتكون منها الظفر والنجاح. فالصبر يحقق كل ما تصبين إليه من آمال ويجلب لك ثمرة الأبدية. إنه اللؤلؤة التي تتشكل في الصدفة، والجوهرة المصوغة في المنجم. إنه القطرة في الرحم التي تتشكل خلال تسعة أشهر، بدراً يضيء العالم".

وجلبت هذه النصائح بعض الهدوء إلى نفس زليخا المضطربة. فألزمت نفسها بالصبر. ولكن صبر هؤلاء العشاق قليلاً ما يدوم إلا كما تدوم كلمات الناصح، وعندما تصمت الكلمات ينسى العاشق ما قيل له !

٤٤- عدم احتمال زليخا مفارقة يوسف عليه السلام وزيارتها له

عندما اختفى يوسف في غياهب السجن كشمس اختفت في مغيبها، بكته زليخا بدموع غزار انهمرت على خديها لامعة مثل نجوم السماء، إنه وقت الليل الذي تحترق فيه آلام العشاق حتى توهج، فساعات ضياء النهار بالنسبة لهم كلها اسوداد بغياب الحبيب- فكيف يكون الأمر عندما يرخي الليل سدوله- إنه سواد فوق سواد ! وبالنسبة للعشاق تلد الليالي الحبالى الألم لا ليتغذى على الحليب، ولكن على دماء القلوب. أي فرح يمكن أن يتوقع من مثل هذا الألم عندما يكون الرضيع متعطشاً للدماء وهو على صدرها ؟ وأمضت زليخا الليل بطوله وقد استهلكتها الصبر، تشرب دماء قلبها، كان ليلها بلا قمر لأنها حرمت من المعشوق، وصار بيتها بلا ضياء، ولو أوقدت مئات المصابيح، فلن تكون كافية لكي تضيء بيتها الذي يفقد الوجه المتألق للحبيب. وعاد الأرق والألم يجريان الدمع من عينيها وهي تحدث نفسها قائلة:

"كم أود أن أعرف كيف حال يوسف هذه الليلة، ومن الذي يخدمه؟ هل الهواء الذي يتنفسه يقبل به أم لا يقبل؟ هل مازالت وردته في ريعانها أم ذبلت؟ وهل ينقبض قلبه من الألم مثل برعم ورد- أم يتمدد متفتحاً بكل ابتهاج مثل وردة مزدهرة؟"

وبهذه التساؤلات اتخذت أفكارها الحزينة صيغاً مختلفة أثناء سهرها ساعات من الليل. وبعدها جف جدول الصبر عندها، وقامت بقلب ملتهب وعينين متدفقتين بآبار من الدموع، لتوقظ وصيفتها وتقول: "هيا ! لنذهب معاً إلى السجن ولو لفترة، وبصورة سرية سوف ندخل مكان الحزن ذاك، ونجثم في زاوية منه، ومنه نستطيع أن نبصر ذلك السجين الجميل. وإلى جانب هذا، لا أرى أي هدف من وراء

حجب تلك الوردة، بل الحديقة الربيعية!". قالت هذا، وتحركت بشيئ من الخفة والمرح، وراحت الوصيفة العجوز تدب وراءها كظل مخلص. وعندما وصلتا المكان طلبت زليخا مقابلة مدير السجن بصورة سرية، وأمرته أن يأخذها إلى مكان منه تستطيع عن بُعد، النظر إلى ذلك القمر المضيء. يا الله! كان هناك، واقفاً على سجادته في صلاة، غارقاً بالنور. فآونة يقف منتصباً مثل شمعة، فيضيىء مكان السجناء بوجهه المشرق. وأخرى ينحني راكعاً كالهلال، فإذا بالأنوار تتدفق من سيماه على مصلاه، ثم يخر ساجداً فتلامس جبهته الأرض في خشوع وتذلل وتضرع- مثل غصن وردة لطيف ينحني بفعل ريح بليلة مسائية، ومرة أخرى يقعد جالساً على الأرض، مدلياً رأسه بخشوع وتواضع.

وجلست زليخا في زاوية معتمة، وكأنها خرجت عن نفسها، لقد صارت قريبة من يوسف قرباً حقيقياً. وطفقت تبث نفسها أحزان قلبها بعين مليئة بالدموع وبحزن شديد تناجي الحبيب:

"إنكَ عين الجمال ونوره! إنك منى قلوب المتيمين! حبك أضرم في قلبي نيراناً تستهلكني ولكنك لم تحاول أن تطفئ ألسنة اللهب عندي بماء الوصال. لقد أغمدت في صدري سيفاً قاسياً، ومع ذلك يبدو أنه لم يتوجع بقسوتك هذه. وفي كل لحظة تجلب لي آلاماً جديدة، دون أن تبدِي أي شفقة علي. كم أتمنى بأن أمي لم تلدني- أو حين ولدت أعطتني مرضعتي السم مع الحليب!".

وحين كانت تناجي نفسها، كان يوسف غارقاً في تأملاته الروحية إلى حد لم يلحظ معه وجود أحد، فكيف يلقي إليها بالاً؟ أو يبدي أية علامة بذلك على الأقل.

ولما انقضى الليل، وقام ديك الفجر يمد رقبته لكي يطلق صيحة انبلاج الفجر، لملمت زليخا ثوبها، وقبلت عتبة السجن وعادت إلى المنزل.

وصار ذهابها إلى السجن رحلة دائمة منتظمة لها، مدة بقاء يوسف فيه. فوجدت انتعاشاً لروحها المتألمة في هذا الانشغال، دون أي شيىء آخر. ولم يجد أحد سعادة ولا في حديقة عطرة أكثر مما وجدته تلك المرأة ذات القلب الدنف في زيارة ذلك السجن. وأين يجد أحد عزاءه في غير هذا المكان إذا كان الحبيب مقيماً بداخله، ولو كان السجن؟ فالليل ذو الأستار يخفي بظلامه أسرار المحبين، ويجلب الراحة لكل من أضاع قلبه. وهناك أمور كثيرة ممكن القيام بها في جوف الليل البهيم، ولا يمكن فعلها في وضح النهار. وما إن قتلت زليخا آلام الليل وحرمانه، حتى حل النهار بعذابه وغمه وبلاياه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى. ولم تجرؤ على كشف وجهها في السجن، ولكنها في الوقت نفسه كانت بحاجة إلى أن تتذرع بالصبر الجميل لكي تمحو صورة السجن من فكرها. وكانت كثيراً ما ترسل خادماً موثوقة إلى يوسف، محملة بكثير من الأطعمة اللذيذة، وتطلب إليها أن تنظر في وجه يوسف بدلاً منها. وعندما تعود تسارع إليها زليخا بالعناق والتقبيل، أليست هاتان العينان قد رأتا وجهه، وهاتان القدمين سارتا إليه؟ ثم تطلق أسئلة ملهوفة مضطربة عنه بلسان لاهث: هل جماله وصحته مازالا ملازمين له؟ هل لمس الطعام الذي أرسل إليه؟ هل يتذكر زليخا التي منحته قلبها ولو على سبيل الصدفة؟

٤٥- صعود زليخا إلى السطح لمشاهدة السجن وبكاؤها لفراق يوسف عليه السلام

وبعد أن تسأل عدداً آخر من الأسئلة من هذا النوع، تصعد إلى سطح منزلها لتنهمر بالبكاء، وفي زاوية من السطح توجد غرفة صغيرة منها تستطيع أن ترى سطح السجن. وهنا تقفل الباب على نفسها، وتجلس وحيدة، وبدموع لؤلؤية غزار تبلل أهدابها الطويلة تبكي وتقول:

"لأني أصبحت غير جديرة برؤيته في شخصه، فيجب أن أقتنع بأن أرى ولو سطح المكان الذي يؤويه، حتى إن مرأى أبواب السجن وجدرانه تجعلني سعيدة، لأنه حيثما ينزل قمري تكن جنتي الدائمة!

وكم هو مبارك ذلك السطح الذي مهمته أن يؤوي تحته شمس العالم! وكم أحسد ذلك الجدار المحظوظ الذي يستند إليه! آه، لو أن سيف حبه يقطعني إرباً إرباً فأصير إلى هباء يندثر ذرات في شعاع الشمس، وعندها أستطيع أن آتي دائرة حائمة حول نافذته وأرقص في نوره المشع!"

وطفقت تقضي يومها كله على هذا المنوال، وعندما يحل المساء تحس بأنها مستعدة لكي تطلق آخر ما عندها من آهات، وتجتهد لكي تستعيد بذاكرتها كيف هربت في تلك الليلة لتراه وكيف رأت وجهه ونوره.

وهكذا سارت الأمور مادام يوسف قد أُبقي سجيناً، وصار ديدنها أن تكون ذاهبة في كل ليلة لتتخذ مكاناً منعزلاً في زاوية السجن، أو آيبةً تحملق في مبنى السجن من غرفتها على سطح القصر. لقد صارت نظراتها دائمة! إما إلى جدار أو إلى وجه، وامتلأ فكرها بذكر يوسف، حتى صارت غريبة تماماً عن نفسها وعن العالم الخارجي لقد أصبحت مستغرقة بذكر يوسف، حتى ضاعت عن نفسها تماماً، ومسح من سجل عقلها كل علامة من الخير والشر. وعبثاً حاولت خادماتها أن يعدنها إلى رشدها. ثم صارت تردد المرة تلو الأخرى:

"أنا أنت. فإذا أردت أن تتحدث إلي، تذكر أن تهزني أولاً. وعندها أعود إلى نفسي ثانية وأستمع إليك. لقد امتلأ قلبي بالحبيب السجين، ولهذا السبب أنا موزعة. فكيف لعقل امتلأ بمثل هذا الجمال أن يصحو على شيء آخر؟"

إنه لسعيد ذلك الذي يستطيع أن يهرب من نفسه ويستروح نسيم العشق. لا شك أن قلبه يصبح مملوءاً بالمعشوق الذي يجري في الشرايين والأعصاب مثل نسغ الحياة. فلا تبقى ذرة في جسمه لم تمتلئ بالحبيب.

إن العاشق الصادق لا يعود قادراً على تمييز رائحة ذاته أو لونها، لأنه ليس مشغولاً بذاته. سواء بالمحبة أو العداوة. بل شغله الشاغل هو المعشوق فقط. ولا يعود قلبه معلقاً لا بتاج ولا بعرش. لأن كل الأطماع والشهوات قد جمعت متاعها وارتحلت عن طريقه. وإذا تحدث، فيتحدث من الحبيب، وإذا تحدث فعن الحبيب يكون الحديث. ولا يعود يأخذ لنفسه أي اعتبار، لأنه يعيش من أجل الحب فقط. إنه يترك كل ما هو فج ضار ويلتفت إلى الناضج النافع، تاركاً تماماً كل حظوظ النفس.

وأنت يا جامي، اخرج عن ذاتك وادخل في حرم السعادة الأبدية! إنك تعرف الطريق التي تقود إليه، فلماذا هذا التقاعس المميت؟ دع عنك هذا العالم الخدّاع وأهله ذوي النفوس البليده، وادخل في ممالك البعد عن العالم. قبل هذا، لم تكن موجوداً، وليس من أذى ينالك بسبب هذا الوجود. وبطريقة مماثلة، اليوم في امتناعك عن أن تكون حيث منفعتك لا تبحث عن ثروتك في الأنانية لأنك لن تنال أية منفعة من مثل هذه التجارة!

٤٦ - في شرح إحسان يوسف للسجناء وتعبيره رؤيا مقربي الملك

كل من ولد منعماً عليه بالحظ السعيد ينشر من ظلاله إشراقة على من حوله. فإذا مشى فوق أرض شائكة تصبح حديقة ورد، ويتحول طينها إلى مسك أذفر ، وإذا مشى كغمامة ماطرة فوق حقول جافة، فإنها تنقلب على الفور إلى جنة بهيجة.

دعه يجلب صفاءه المرح إلى السجن، ليصبح رفقاؤه السجناء بعيدين عن همومهم وأحزانهم!

وهكذا كان وصول يوسف إلى السجن، فقد جلب معه البهجة والسعادة للسجناء، وجعلهم ينسون آلامهم، وإذا مرض أحد منهم فإن يوسف يكرس نفسه للاهتمام به ويواسي آلامه ويسري عنه، وإذا رأى سجيناً آخر مهموماً مسيطراً عليه اليأس فإنه يبذل كل ما في وسعه لكي يحل له مشكلته ويجعله يتغلب على يأسه. ولو حصل أن أحدهم، وقع في دوامة الوجل من جراء كابوس، فإن يوسف يفسره له ويحاول أن يرشده إلى طريق الصواب، وصار يدعوهم إلى عبادة إله واحد قائلاً لهم: ﴿ أأرباب متفرقون أم الواحد القهار؟﴾

وفي ذلك السجن التقى بشابين من بلاط الملك، اقترفا ذنباً فأُدخلا السجن، واشتركا مع يوسف في المصير الواحد. وصارا يسران إليه بما يعتلج في نفسيهما، وفي إحدى الليالي رأى كل منهما حلماً غامضاً لم يستطع تفسيره. قال له الأول: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ وقال له الآخر ﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، نبأنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ فقال لهما يوسف عليه السلام : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلك مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب تفرقون أم الواحد القهار﴾ ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾. وحصل أن حصل ما فسر به الحلمان، أحدهما قتل على المشنقة والآخر نال الفضل وبقي في حاشية الملك. وقد طلب إليه يوسف أن يذكر اسمه عند الملك: ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك﴾. "عندما يكون الملك مع جلسائه وسمح لك بالكلام، وسنحت لك الفرصة

بالحديث، أخبره أن هناك في السجن إنساناً غريباً بائساً، لم تنله عدالة الملك. واطلب إليه أن لا يدع بريئاً يقاسي الظلم".

ولكن حينما حصل ذلك الرجل المحظوظ على رتبته العالية بعد خروجه من السجن، واحتسى الخمرة من زجاجة القرب من ملك الملوك، نسي طلب يوسف وامحى من ذاكرته تماماً، ولم يتذكره أبداً حتى مرت السنين وبقي غصن الوعد جافاً، وطالت مدة سجن يوسف المرعبة.

عندما يختار المولى إنساناً ويرفعه إلى مكان الشرف في حبه، فإنه يقرب منه جميع دروب المساعدة، ولا يدعه يعتمد على أحد أبداً، بل يجعله يفكر في معونة الخالق فقط. إن خالقه يلفت انتباهه إلى نفسه على نحو محدد، ويفصله عن جميع العلائق الأخرى. ولا يرغب في أن يشاركه أحد فيما يغنمه، أو أن هذا الشخص المختار لا يحتاج إلى أحد إلا الله. ولا يرغب أيضاً في أن ينشغل بأي إنسان آخر. إن الأسير المسجون في شبكته، يريدها أن تكون له، وله وحده.

٤٧- طلب الملك يوسف عليه السلام لتعبير رؤياه وإصرار يوسف على تحقيق ما حدث بينه وبين نسوة مصر

غالباً ما يحصل أن يضيع المفتاح لقفلٍ ما، ويبدو للرائي أنه ليس هناك من طريقة لفتحه، ثم، عندما يحاول صاحبه فتحه بكل قوته ويعجز ويظن أعقل العقلاء أنه ليس من حل، فجأة، ودون تدخل حداد ماهر، تنبثق وسيلة خاصة لفتحه من مملكة الأسرار، فتنفتح الطريق إلى كل ما نهوى ونريد!

وبهذه الطريقة عينها، عندما استنفد يوسف كل الأوهام حول كونه قادراً على إيجاد حيلة ليتخلص من السجن، لم يبق له سوى اللجوء إلى الله سبحانه- حافظنا الحقيقي جميعاً عن كل الشرور. وعندما

تخلى يوسف عن حظوظ النفس، في ذلك الوقت بالذات أخذ الله بيده بكرمه الواسع ورحمته التي وسعت كل شيء.

ففي إحدى الليالي، كان ملك مصر الحاكم الساهر قد حلم حلماً، رأى سبع بقرات، وكل واحدة سمينة وأجمل من أختها، ثم جاء بعدهن سبع بقرات عجاف فهاجمت البقرات الأول وأكلتهم، وكأنها تأكل العشب. ثم رأى حلماً آخر، رأى سبع سنبلات خضر وأُخر يابسات- منظر بهيج للرؤية، ثم برزت السنبلات اليابسات وأحاطت بالسنبلات الخضر وأتلفتهن!

﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾

عندما نهض الملك من فراشه في اليوم التالي سأل أصحاب العقول في حاشيته عن تفسير لما رأى في هذين الحلمين، ﴿يأيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ ولكنهم جميعاً قالوا: "إنها ﴿ أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ ولسنا نملك تفسيراً مقنعاً لهما، والأفضل إهمالهما". ولكن كان هناك استثناء واحد، لقد رفع حجاب النسيان من ذاكرة ذلك الوصيف الذي عرف يوسف، فقال للملك:

"إن في السجن شاباً ذا جمال أخاذ، ويملك موهبة ماهرة في تفكيك رموز أعظم الأسرار وأدقها، إن تفسيراته للأحلام شفافة وصحيحة الحاكمة، إن قلبه دائم التسبيح مثل غواص في أعماق المعاني، وبعدها يعود منها حاملاً ثمين اللآلئ. فإذا تفضلت بالإذن لي، فإني سأخبره بالأحلام التي رأيتها وأخبرك بتفسيرها. فقال الملك:

"بالتأكيد، فهل هناك شيء أنفع لإنسان أعمى من عينين مبصرتين تستطيعان أن تريا جيداً؟؟"

وسارع الشاب إلى السجن ليخبر يوسف بحلم الملك، ففسر له يوسف الحلم قائلاً: "إن البقرات والسنبلات رموز للسنين، فالسنبلة الخضراء والبقرات السمينة تمثّل سنوات الخير، والسنبلات اليابسات والبقرات العجفاوات تنبئ عن سنوات قحط. وسيكون هناك سبع سنوات من مطر غزير يعقبه حصاد كثير، وسيغرق الناس بالثروة. ثم تتبعها سنوات يُستهلك فيها جميع ما حُصد من غراس، وسوف يتعب الناس في سبيل الحصول على لقمة العيش- حيث لا غمامة ممطرة من السماء ولا نبتة صغيرة من العشب. وحتّى الأغنياء عليهم أن يضحوا بملذاتهم. والفترة العصيبة هي المجاعة التي تميت الناس من شدة الجوع".

وعاد الشاب إلى الملك ليروي له تفسير حلمه، ويخبره أيضاً عن إصرار يوسف على تحري الملك لحقيقة سبب سجنه. فقال الملك:" أسرع وائت بيوسف إلى هنا، حتى أسمع منه تأكيد هذا التفسير العبقري بنفسي!".

عندما تسنح الفرصة لسماع الحبيب يتكلم بنفسه، فلماذا نستمع إلى تقارير مروية عنه؟ إن الكلمات التي تنقلها لي من الحبيب لها لذة العسل، ولكن كم تكون ألذ إذا نطق بها بنفسه! لقد عاد الوصيف إلى السجن سريعاً حاملاً ليوسف الأخبار السارة: "يا شبيه السروة القادمة من الحدائق القدسية، اذهب إلى الساحة الملكية حتى يكون وجهك الجميل أحلى وردة فيها!". ولكن يوسف رد عليه قائلاً: "لماذا علي أن أحث الخطى إلى هذا الملك الذي أبقاني أسيراً هنا في هذا الحصن طيلة هذه السنين- وأنا بريء، مبعد، يائس من أن ألقى ولو خيطاً رفيعاً من الرحمة؟ إذا أراد لي أن أغادر هذا المكان، مكان العذاب والغم، فقل له أن يحاكم أولات النسوة الجميلات اللواتي صرن مذهولات لدى رؤية

وجهي حتى أنهن جرحن أيديهن، دعهن يجتمعن في مكان واحد، وأكشف الغطاء عن تصرفاتي حيالهن، ودعهن يخبرن الملك بذنبي، ولماذا أُخذت إلى السجن؟ وحينئذ سوف ينجلي السر ويفتضح الأمر، ويعلم الملك أن قميصي لم يتلطخ بالعار. وأنني لم أفكر أبداً بارتكاب خطيئة، وأن فكرة الخيانة لم تخطر لي على بال أصلاً. إنني لم أرتكب أي جرم في منزل العزيز، بل كنت دائماً شديد الولاء والإخلاص. وبجانب كل هذا من الأفضل لي أن أندسّ في سرداب، كنزاً تحت الأرض، من أن أمشي كمجرم محكوم عليه في بيت مفروش بالسجاد على نحو مترف!".

ولما عاد الرسول بالجواب إلى الملك، أرسل إلى سيدات المدينة لكي يجتمعن أمامه وبحضرته. ولما تم الاجتماع، وكانت النسوة كفراشات يحمن حول لهب مصباح، سلط الملك لسانه اللاذع، وقال لهن:

"ما هي الخطيئة التي وجدتنها في مصباح أمان الروح هذا، حتى أنكن سللتن سيف الافتراء ضده؟ إن منظر وجهه مثل حديقة في فصل ربيع، فلماذا وضعتنه على طريق مؤدية إلى السجن؟".

فأجابت النسوة: "أيها الملك النبيل، المأمول بكل خير، الشكر لمن تاجه وعرشه في غاية الازدهار، نحن لا نعلم عن يوسف سوى الطهارة والشرف والنبل. ليس هناك لؤلؤة نقية تنافس روح العالم هذا".

وكانت زليخا حاضرة بين الجمع، حزينة القلب واللسان من تلك التقولات والأكاذيب والخيانة– الآن، وآلام الحب طهرتها من أية خديعة أو مكر خفي، ظهرت الحقيقة رافعة لواءها اللامع في قلبها، وتقدمت بقوة وبكل إخلاص، مثل ضياء الفجر وقالت: ﴿الآن حصحص الحق﴾! إن يوسف بريء من أي ذنب، إنها أنا التي قادها الحب إلى الضلال. في البداية راودته عن نفسه، ثم عندما لم يستجب لي ورفضني دفعت به عني، وأخيراً في قسوتي عليه أمرت بزجه في السجن، حتى أجعله يقاسي ما أقاسيه من

عذاب. هذه هي الحقيقة. والآن وقد اشتد حزني على ما فعلت وصار شديد الإيلام لي أكثر من ذي قبل ولم أعد أحتمله، صارت حالة يوسف في حالة عدوى مني. إنه الآن مؤهل لأن يعوض عن الأخطاء التي سببت له أن يقاسيها ظلماً، وأي تعويض يتلقاه من الملك الكريم، فإنه يستحق مضاعفاً مئات المرات".

كان الملك مبتهجاً لدى سماعه تلك الكلمات، وأعلن أن يوسف يجب أن يطلق سراحه وأن يؤتى به إلى حدائق القصر الملكي لأن السجن ليس بالمكان اللائق لوردة رائعة قادمة من حدائق الرفعة- هذا الوارث المبارك من مملكة الروح.

٤٨- خروج يوسف عليه السلام من السجن وإكرام ملك مصر له، وموت عزيز مصر وابتلاء زليخا بالوحدة والفراق

منذ زمن طويل عرفت مقولة شهيرة وهي أنه من دون المرارة لا تحلو الحياة، فمثلاً لمدة تسعة شهور على الطفل أن يشرب من دم رحم أمه قبل أن يرى النور. وكم من الآلام على الجوهرة أن تقاسي، مسجونة في الصخرة، قبل أن تنير أشعة الشمس بريقها الأخاذ!

لقد زال ليل الحزن الطويل عن يوسف وبزغ له فجر المكافأة والأجر أخيراً، وأشرقت الشمس من خلف جبال الآلام التي أثقلت كاهله. وأعطيت الأوامر لحاشية الملك بأن يعدوا استقبالاً حافلاً على شرف يوسف! والآن تقدم يوسف نحو القصر مرتدياً ثياب الشرف الملكية. وكان جواده المتبختر مغموراً من رأسه إلى قدمه بالذهب والجواهر. وحملت أمامه صوان مليئة بالمسك والعنبر، ونثرت قطع ذهبية حملت بالأكياس على طريقه مع كميات كبيرة من اللآلئ والجواهر- منقذة كثيراً من المتسولين من

آفة التسول. وعندما وصل إلى القصر ترجل عن صهوة جواده، وتقدم من بين الجموع التي قامت له منحنية فوق سجاجيد من الحرير والأطلس والقماش المقصب. ولما سمع الملك بقدومه، خرج متلهفاً ليقابله. وربت على صدره بحنان وأمره أن يجلس بجانبه على العرش. وبعد أن سأله بعض الأسئلة ملاطفاً، عن حالته وصحته، طلب إليه أن يسمعه تفسير الحلم الذي شاهده، من فمه نفسه. ثم سأله عن مواضيع شتى وأعجب بفصاحته وإجاباته الذكية التي كان يتلقاها منه. وأخيراً قال الملك:

لقد أعطيتني تفسيرات ذكية لأحلامي، ولكن كيف لنا أن نتفادى الأخطار التي شرحتها لي، وكيف نتغلب على الصعوبات فيها، لنخفف الأذى عن الناس؟ فقال يوسف:

"هذا ما يجب أن نفعله، في سنوات الخير عندما تهطل الأمطار بغزارة، ينادي المنادي بالناس في كل حدب وصوب أن وقت البذار قد حان- ولو أدى الأمر إلى أن يضطروا إلى حرث الصخر بأظافرهم، وأن يبذروا الحبوب بعرق جباههم. وحينما ينضج الثمر يجب أن يحفظ، وألا يستهلك منه إلا أقل القليل يومياً. ولكن للتحكم بمثل هذه العملية الهامة، لابد من شخص يملك القدرة والشجاعة والحكمة، لأهميتها هنا- لا بد من أحد يعرف الهدف من ذلك وكيف يمكن أن يتم إنجازه. إن المشاريع كثيرة في العالم، ولكن ليس من الممكن أن تجد وزيراً حكيماً كفئاً أفضل مني، ولا تستطيع أن تفعل أكثر من أن تثق بي في الائتمان على إدارة هذه المبادرة وإسنادها إلي".

وكان الملك متأكداً من قدرات يوسف، فمنحه السلطة على جميع أراضي مصر، ووسط كثير من الإجلال، خلع عليه لقب عزيز مصر. ولقد وهب المولى الكريم ليوسف موهبة تنظيم مثل هذه الأمور الخطيرة والأعمال ذات الأثر العظيم على المملكة.

أما العزيز- زوج زليخا- فإنه عندما رأى حظوظه تتضاءل، وراية رتبته العلية تسقط من حالق ويرمى بها، لم يتحمل قلبه هذا السقوط، وعلى الفور صار هدفاً للموت. لقد فقدت زليخا الآن كل شيء، فبيتها لم يعد له ذلك المقام الذي كان لزوجها، كما أن مرض قلبها من شدة حب يوسف لم يبرأ من يوسف!

هذه هي تدابير السماء على أرضنا، مكان البؤس واليأس والألم. بطء في الحب، سرعة في الكراهية- ترفع رجلاً إلى علو الشمس في برجها، وتخفض آخر إلى الأرض كأنه الظل. والسعيد هو الذي تلهمه الحكمة أن يعتبر ويأخذ درساً من هؤلاء الذين عَلَوْا أو الذين سقطوا، وهو الذي لا يغتر بما أوتي ولا يحزن أو يأسى على ما فات في زمن الشدة.

٤٩- شرح حال زليخا بعد وفاة زوجها واستيلاء محبة يوسف عليه السلام عليها وابتلاؤها بالمحنة والأسى

إن القلب الذي يقاسي آلام العشق يصبح بألم عشقه ذا مناعة من الابتهاج بكل أنواع السعادة أو نقيضها. فلا يتأثر المحب بأي حزن أو يعلق بثوبه ألم، وكذلك لا تفرحه سعادة أو تسيطر عليه. ولو صار العالم بالنسبة له كبحر من البلوى، يموج بأمواج من الأسى تعلو كأنها الجبال. فإنه لا يتأثر أبداً بها ولا يبتل ولا حتى طرف ثوبه منها. ولو جاء الحظ ليعد له حفلة مليئة بالملذات الأبدية، فإنه يدير ظهره لها. لأنه لا شيء يخرجه من حزنه الخاص- لأنه لا يريد أن يزول عنه بأية طريقة.

كانت زليخا كطائر يغرد أنشودة حزينة، فقد صار العالم بالنسبة لها قفصاً يقيدها. وحتى حين بسم لها الحظ وعاشت في سرير من الورود مصونة في ظل العزيز-مدللة بكل نوع من أنواع الترف- بقي حزنها

على يوسف يعذب روحها على الدوام. فلم تعد تتحدث إلا عن ذكرياتها عنه. والآن وقد مات زوجها، ولم يبق لها شيء من ثروتهما السابقة، غدت صفر اليدين ما عدا صورة الحبيب الوحيد التي بقيت في قلبها الجريح.

وأخذت طريقها إلى إحدى خرائب البيوت، وهناك في زاوية منها اتخذت لنفسها مأوى ومسكناً، وعافت الطعام وجفاها المنام، وكانت تبكي دون انقطاع وتنوح على الأوقات السعيدة التي تمتعت بها بحضور الحبيب وتملّت عينها من جماله مئات المرات كل يوم. وبعد ذلك نُهبت منها تلك السعادة عندما سببت السجن لذلك الشاب المسكين، بكل قسوة. وعلى الأقل كانت قادرة على الاقتراب من سجنه تحت ستار الليل لكي تنظر إلى وجهه.

"والآن لم يبق لي شيء سوى تفجعي وقلبي البائس وجسمي المريض. كل ما أملكه في هذه اللحظة من الحبيب هو صورة دائمة الحضور في قلبي. وإذا كان قدر لهذه الصورة أن تنمحي، فكيف لي أن أبقى على قيد الحياة، فقد صار الحبيب هو الروح التي تحيي هذا الجسم".

كانت تنهداتها تملأ الجو من حولها بدخان شاحب. وأحياناً كانت تجرح وجهها بأظافرها، وكأنها بحاجة إلى حبر أحمر لكي تكتب به قصة آلامها، ولكن هذا كان الكتاب الذي يفك به الحبيب رموز ما لم يكتب من الأسرار التي لن يقرأها أبداً.

وأمضت سنوات عدة على هذه الحال، وهي تتألم على فراقها للحبيب. ومع مر السنين، ذوى شبابها، وتحول شعرها الأسود سواد القار إلى لون بياض الحليب. وأعقب الفجر سواد الليل، ونثر الكافور لونه فوق غدائرها المضمخة بعبير المسك، وأطلق غراب البين سهام القدر، وحلت البومة في عش

غراب البين. وأبيضّ لون قزحية عينيها من شدة البكاء وذَرْف الدموع فصارتا بلون الياسمين. وتجعد وجهها، وذوت بشرتها النضرة، وأما نظرتها العالية ذات مسحة العبوس التي كانت مرسومة على وجهها، فقد انتشرت من دون زيف على ملامح وجهها. وأما قامتها المنتصبة وجسمها النحيل فقد تضاعف انحناؤهما مضاعفة من شدة ما ناءا به من ثقل حبها. وبظهرها المحدودب وعينيها الزائغتين المطرقتين، بدت وكأنها تتجول فوق الأرض التي امتصت الدماء في بحث عن كنزها المفقود وحظها الضائع.

وعاشت في تلك الخرابة شهوراً وسنين، دون تاج تضعه على رأسها، ودون خلاخيل في قدميها، ولا رداء من الأطلس الرقيق تطرحه على كتفيها، ولا لآلئ على أذنيها أو عقد مجوهر حول رقبتها، ولا غلالة رقيقة من القماش القصب تغطي وجهها. صار فراشها التراب الذي تدوسه قدماها، وغدت وسادتها قطعة من آجرّ. ولكنها كانت على يقين بأنه مع حبها ليوسف، يبدو لها هذا السرير الترابي أفضل بكثير من أريكة سندس تجلس عليها الحور، وبتذكرها ليوسف تصير الوسادة الآجريّة التي تتوسدها مُساوية لوسادة من الجنة!

ولو قدر لي أن أنظم مئات اللآلئ من الأبيات، فإني ربما أُصف مجرد جزء من الأسى الذي غرقت فيه. كان عزاؤها الوحيد اسم يوسف الذي كانت دائمة الترداد له. وفي الوقت الذي كانت تملك فيه قدراً يسيراً من الذهب والفضة والجواهر، كانت تمطر من يحمل إليها خبراً عن يوسف بوابل من الهدايا الفاخرة. ولكن مثل هذا السخاء والبذخ المستمر أفرغ خزائنها من المال!

والآن على تلك المرأة البائسة أن ترضى بثوب صوف خشن وحزام من قشر النخل. واختفى الناس الذين كانوا يتدفقون عليها كالجدول لكي يحملوا إليها أخبار يوسف!

وحتى لا تُحرمَ من سماع أخباره التي تنعش روحها قررت أن تجعل مسكنها على الطريق الموازية للمكان الذي عادة ما يمر منه يوسف، وبذلك تستطيع أن تتغذى على الأقل على وقع أصوات موكب فرسانه.

فلنشفق على هذه المخلوقة البائسة التي لاحول لها ولاقوة! بعد أن أطلقت لنفسها عنان حرية الإرادة وحرمت من اللقاء بالحبيب، وتغير تناغم حياتها وصار إلى نشاز. فلم تعد تستطيع أن تتنسم رائحة الحبيب التي ترد الروح، ولم يعد أي رسول يخبرها عنه بخبر. أحيانا كانت تحمّل الريح ألمها الدفين، أو تطلب من طائر مارّ بعض علامة عنه. وإذا مر بها عابر سبيل بوجه عليه وعثاء سفر أو بُعد، فإنها تقبل قدميه وتغسل عنهما التراب، لأنهما قدمتا من مدينة الحبيب. وحتى حين يمر سيدها راكباً لم تكن قادرة علي التملي من هيبته، ولكن التراب والجلبة التي يحدثها موكبه كانت كافية أن ترفع من روحها المعنوية.

٥٠- مجيئ زليخا إلى قارعة طريق يوسف عليه السلام وإقامة كوخ من القصب لتجد الرضى وسكينة القلب بسماع صوت عبور جيشه

وهكذا تدنت حال زليخا بفعل العزلة، فقامت ببناء كوخ من القصب على قارعة الطريق التي اعتاد يوسف أن يمر منها. وسوّرت هذا الكوخ بسياج من قصب يصفر حين تمر به الريح مثل مجموعة من النايات تعزف ألحاناً حزينة. وعندما تبدأ بالعويل والندب على ضياعها يستجيب لها كل ناي على انفراد ويتعاطف معها عازفاً لحن ألم. وقد ترتاح فتستلقي وسط هذه الأعواد مثل رئم برية صيدت فأحاطتها السهام من كل جانب.

كان في اصطبل يوسف عدد كبير من الخيول الأصيلة، مرقطة مثل قبة السماء المزينة بالنجوم، كانت سريعة سرعة الشياطين، وممكن أن تسابق أية طريدة في السباق، وكانت دائماً تسبح في عرقها . لأنها تقفز بسرعة.

ولكن هذه الفرس كنز سائر، لا تحس بلسعة أي سوط على جسمها . وعندما يعتلي يوسف صهوتها ويضع جسمه عليها فإن صوت صهيلها يُسمع على بعد أميال من المكان، ولذا فليس هناك من حاجة لقرع الطبول من أجل الاجتماع عندما يعلن النفير، فعلى الفور تتجمع حاشية يوسف حوله مثل الكواكب التي تحيط بالقمر.

وهنا تسمع زليخا أيضاً صوت الجلبة، فتسارع خارجة من كوخها القصبي، لكي تجلس على قارعة الطريق متنهدة باكية. وأحيانا يأتي الموكب دون أن يكون يوسف فيه، فيأتي صبية صغار لكي يسخروا من زليخا ويصرخون: "يا هذه! ! لقد أقبل يوسف، إن يوسف بوجهه الجميل يغار منه القمر والشمس!" . ولكن زليخا ترد عليهم:

"لا، يا أحبائي اللعوبين، إني لا أحس بأية علامة من يوسف! فلا تحاولوا أن تخدعوا قلبي الملتهب بأكاذيبكم. لأن عطر يوسف لم يصل إلى مشامّي" . وعلى العكس من ذلك، عندما يكون يوسف حقيقة يقترب من المكان بحاشيته المهيبة، يسارع الصبية ويصرخون:

"لا ، لا يوجد أي ظهور ليوسف، إنه ليس برفقة الموكب" . فتجيب قائلة:

"لا تحاولوا أن تضحكوا مني وتخفوا عني الحبيب! كيف يمكن للمرء أن يخفي حضور ذلك الفاتن في مملكة الروح؟ إن رائحته تحرك حديقة الروح- ليست روحي التي تتحرك فقط، بل تنعش العالم

كله، وبذلك تنتعش الروح وبانتعاشها تصير واعية تماماً لمن نشّط الحياة في العروق". وعندما تسمع تلك المرأة المذهولة والمنبوذة الصيحة عالية على الرجال المسلحين:"هيا انطلقوا ! حافظوا على مسافة البعد !"-تتنهد وتقول: " لقد قضيت حياتي محافظة على مسافة البعد، ومتحملة كل آلام الفراق. ألم أقاسِ البعد مدة طويلة؟ ألا يكفي هذا؟ وما بقي لي من شيئ أضحي به إلا التضحية نفسها؟ فكم من الوقت سوف أمكث منقطعة عن الحبيب؟ إن الأفضل لي أن أفارق روحي!".

وبعد أن تقول هذا، تقع على الأرض دون حراك. وفيما بعد تعود إلى قفصها القصبي منتشية بكأس الحبيب، وتردد النايات صدى توجعها الكئيب لروحها اليائسة. واستمر نمط حياتها رتيباً على هذه الصورة. ليس هناك من راحة لعاشق وهب قلبه للحب، فشوقه الشديد لرؤية الحبيب يزداد ساعة بعد ساعة، ولحظات الراحة عنده سرعان ما تنتهي بلحظة. وكل لحظة يتقدم أمله إلى أمل أكبر وأعظم. فإذا شم رائحة الوردة رغب في أن يراها، وإذا رآها، فإنه وعلى الفور يريد أن يقطفها.

وكذا كانت زليخا، لم تعد قانعة بأن تجلس وتنتظر مرور يوسف، فقد أحست الآن برغبة شديدة في أن ترى وجهه. وفي إحدى الأمسيات سجدت أمام صنم كانت تعبده في حياتها وصارت تناجيه قائلة:"يا من كان جماله على الدوام هدف روحي، ومن عبدته بكل تذلل، وأنت ترى ذلي الحالي، هل أنت غير قادر على أن تحافظ على جوهر بصري؟ إذا كان علي أن أبقى بعيدة عن يوسف، فعلى الأقل دعني أر وجهه من بعيد. إن هذا أملي الوحيد في كل وقت وفي كل مكان. حقق لي أمنيتي، مادمت قادراً على ذلك، ولا تبعدني إلى حيث القدر القاسي. ما هذه الحياة التي أحياها؟ إن الموت لأفضل منها بمئات المرات! ". . . . .

٥١- التزام زليخا طريق يوسف ﷺ وعدم التفاته إليها وذهابها وتحطيمها الصنم وإيمانها بالله تعالى وعودتها إلى الطريق وحظوتها بالتفاته إليها

وعندما تحركت الشمس وأخذت مكانها على عرشها الملكي في المشرق، سُمع صوتُ صهيل فرس يوسف عن بُعد، فخرجت زليخا زاحفة مثل امرأة متسولة على قارعة الطريق. ومن أعماق قلبها أطلقت صرخة أليمة- مثلما يفعل ذو الحظوظ العاثرة من الناس عندما يطلبون العدل في المحكمة. كانت جلبة الموكب عظيمة، وكان حاملو السلاح يصيحون بالناس "ابتعدوا"، والأحصنة الصواهل تنافس الريح في سرعتها، فلم يعرها أحد من الفرسان أدنى انتباه.

وبجميع آمالها التي تحطمت تماماً بعد هذا الدعاء، وتمتماتها وتأوهاتها الصادرة عن قلب محطم، وآهاتها الملتهبة، ترنحت متراجعة إلى كوخها البسيط. وهنا صبت جام غضبها وحزنها على تلك الصورة المنقوشة والتمثال المنحوت قائلة:

"أيها الحجر الحقير الذي حطمت إناء شرفي وهيبتي، لقد وقفت حجر عثرة في وجه آمالي! إنك أنت الذي أغلقت عني طريق السعادة، وما ذلك إلا لأني وزنت أموري بقطعة حجر حينما انحنيتُ لك، وانطلقتُ على الطريق العامة المؤدية إلى هلاكي. إنني من خلال توسلاتي جميعها كنت أعوق نفسي عن أية سعادة في هذه الدنيا وفي الآخرة. إنك لست شيئاً. إنك مجرد حجر، والآن قررتُ أن أهرب من هيمنتك المهينة عليّ. وسوف أكسرك بحجر آخر وأحطم جوهر قوتك". وبعد أن قالت ذلك، أمسكت بحجر، ومثل سيدنا إبراهيم ﷺ حطمت به الصنم، ومن تلك القطع المتناثرة التي عاجلتها بالضرب،

ظهر عندها قوة جديدة، لقد تطهرت واغتسلت بدموعها ودماء قلبها، وبجبهتها الساجدة المعفرة بالتراب بدأت تسأل المغفرة إلهها الحقيقي:

"أيها الحبيب ! إنه أنت مالك السيطرة على الأصنام وعلى ناحتيها وعابديها ! وإذا لم يعكس الصنم جمالك، فلن ينحني له أحد . إن من يسجد أمام صنم يظن أنه بفعله هذا يعبد الألوهية. يارب إذا كنت ارتكبت مثل هذه الحماقة، فإنها نفسي التي أقر الآن بخطئها . فارحمني واغفر لي هذه الخطيئة الفاحشة. لقد سلبتني نعمة البصر لأنها كانت تقودني إلى طريق الغواية، والآن حيث نفضتَ عني غبار الذنوب، أدعوك أن تعيد إلي النعمة التي أخذتها مني. دع قلبي يشفى من جروح الندم، ودعني أقطف زهرة توليب من حديقة يوسف- دعني أسارق نظرة إلى يوسف" ! . . . .

وعندما عاد يوسف، عزيز مصر، من تلك الطريق، كانت زليخا قد اتخذت موقعاً على قارعتها . فنادت على بارئها وهو يمر بموكبه:

"يا أيها الموجود العظيم، الذي جعل الملك عبداً حقيراً وتوج عبداً بتاج الملك !" ووصلت هذه الكلمات إلى سمع يوسف، فامتلأ قلبه بالخشوع. ثم التفت إلى الحاجب بجانبه وقال له:

"من تكون تلك المرأة؟ إن تسبيحها بحمد الله قطع أنفاسي. اجلبوها إلى مسكني حتى أتمكن من أن أتحدث إليها بنفسي، أريد أن أتعرف حالتها ومن هي، وأحاول مساعدتها فيما تحتاجه. لأنها عندما نادت بتمجيدها وتسبيحها لله بذلك الصوت المحب الورع المتألم أثرت فيّ حقاً وأثارت انطباعاً مذهلاً عندي. ولا يمكن لكلماتها أن تؤثر علي ذلك التأثير لولا أنها صادرة من قلب متألم ومصيبة كبيرة" .

سبحان الملك القدير السميع العليم الذي مجرد تنهيدة أو تطلع صادق إليه يرسلها العبد كافية لأن يكشف إخلاصه، ويستجيب له ولكل من يدعوه رغباً ورهباً . وكم نرى الفرق شاسعاً إذا تطلعنا إلى ملوك زماننا الذين لا يبحثون إلا عن ذرائع لكي يجمعوا الذنوب أكواما ! ! .

٥٢- مجيء زليخا إلى خلوة يوسف وعودة بصرها وجمالها وشبابها بدعائه

لا توجد سعادة للمحب أعظم من أن يستجيب له الحبيب أخيراً بتودد، ويمنحه حق الدخول إلى خاصة نفسه، حيث يستطيع أن يجالسه ويفضي إليه بأعباء قلبه، وينثر أمامه أسراره الخاصة ويسترجع الماضي.

عندما استراح يوسف من ضجيج الطريق وعاد إلى هدوء بيته وسكينته، ذكّره حاجبه بالمرأة العجوز التي رآها على جانب الطريق، والتي جاءوا بها بناء على طلب يوسف. فقال له:" سلوها حاجتها وحاولوا أن تصلحوا أمرها لأنها بائسة " .فقال الحاجب:" إنها شديدة الخجل ولذلك لا تستطيع أن تخبرني بصراحة عما تريد" .فقال يوسف : "حسناً، دعها تدخل وتخبرني بنفسها"

ودخلت زليخا منزل يوسف بمرح شديد كبرعم ورد يتفتح، وحيته بابتسامة مشرقة. فدهش لذلك المرح، فسألها عن اسمها ومن أين جاءت، فأجابته:

"إنني من عامة الناس، وأول ما وقع بصري عليك، اخترتك حبيباً على كل ما هذا في العالم. ولكي أستطيع الوصول إليك بددت ثروتي وكرست نفسي قلباً وروحاً لحبك. وفي معاناتي لأجلك ألقيتُ بشبابي إلى الريح، ولذا وقعت فيما تراني فيه من عجز وتداعٍ. ولكن الآن، وقد عانقتَ حبيبات جديدات- السلطة والهيبة والوزارة- نسيتني تماماً" .

وعندما تحقق ليوسف من هي، تألم كثيراً لحالها وأخذته الشفقة عليها فبكى وقال:

"يا زليخا، كيف وقعت في مثل هذه الحالة المزرية؟".

وكان فرح زليخا شديداً لدى سماعها صوت يوسف ينطق باسمها، حتى إنها وقعت في إغماءة ثملة، ثم عادت إلى وعيها مرة أخرى، وتابع يوسف أسئلته:

- ماذا حصل لشبابك وجمالك؟

- لأني لم أحصل عليك، أضعتهما أيضاً.

- وكيف انحنى جسمك الكريم إلى هذه الدرجة؟

- انحنى تحت وطأة تلف الروح من شدة ألم الفراق عنك.

- ولماذا انطفأ بصر عينيك؟

- لأنهما حرمتا رؤيتك، وغرقتا بدموع دامية!

- وأين ثروتك الكبيرة- تاجك ومملكتك؟

- لقد نثرتهما على كل من تغنى بمديحك. والآن لم يبق لي إلا قلبي، ذلك الكنز الوحيد الذي يحفظ لي حبي!

_ إلام تحتاجين الآن؟ هل يؤمن لك أحد ما تريدين؟

إنك الشخص الوحيد الذي يجب أن تهتم لما أريد. وأنا لا أرغب في أن ألتجئ إلى أحد سواك. إذا حلفت أن تضمن لي ما أحتاج، أخبرتك ما هو، وإذا كان غير ذلك، فإني سوف أسلم نفسي للألم بصمت. أجابها يوسف:

"وحق أبي إبراهيم ﷺ، ذلك المعين الثر من الكرم، وأبو الأنبياء، والذي تحولت النار التي أضرمت لإحراقه إلى حبة مزهرة وأعشاب عطرة، إذا كان بيدي أن أفعل، فسوف أحقق لك ما تريدين في هذا اليوم". فردت عليه قائلة:

"إن أمنيتي الأولى أن يعود لي شبابي وجمالي- كما كانا حين عرفتني، وأمنيتي الثانية أن يعود إليّ بصري فأستطيع أن أرى بهما وجهك واقطف وردة من حديقة حضرتك.

وتحركت شفتا يوسف بالدعاء، وتدفقت دعواتُه طافحة مثل ماء الحياة الأبدي. فإذا بجمالها القديم يعود لها- وإذا بالحياة تعود إلى جدولها الجاف، ثم عادت وردة حديقة الغدائر السود. وانتشر النور طارداً الظلام من عينيها. وأما جسمها المحدودب فقد استقام وصار مثل شجرة السرو مرة أخرى، وزالت التجاعيد من جلدها الغض. وطرد الشبابُ الشيخوخة، والأربعون غدت ثمانية عشرة، ووصل جمالُها المتجدد إلى الأوج وإلى أفضل مما كان.

قال يوسف أخيراً: "إذا كان لك من مطلب آخر، فقوليه". فأجابته:

"الأمنية الوحيدة التي بقيت لي هي أن أعيش معك حياة كلها حب ووئام، أتطلع إلى وجهك في النهار، وفي الليل أفرغ وجهي على أخمص قدميك، حتى أحتمي بطولك، وجسمك السروي النحيل السامق. وأجمع رحيق شفتيك المبتسمين العذبين. وعندما أرى أن أمنيتي تحققت، فقلبي الجريح سوف يبرأ في الحال. آه، دع ينبوع حبك الثر يروي حلقي الذابل الخرب".

وبقي يوسف صامتاً، خافض الرأس. كان ينتظر الرد بلهفة من مملكة الأسرار، لأنه كان ممزقاً بين أمنيتين متضاربتين. وأخيراً سمع صوت أجنحة جبريل ﷺ تصل إليه فقال له: "إنني أحمل إليك

بركتي، أيها الملك النبيل، ورسالة من الله العلي القدير، لقد رأينا ضعف زليخا وسمعنا توسلاتها، إن بحر محيط الرحمة عندنا قد اهتز بفعل تضرعها واسترحامها، وإننا لا نريد أن نطعن قلبها بنصل اليأس. ولذا فقد قررنا أن نجمعها معك على عرش السماء. لذا اربط نفسك بها بعقدة أبدية — وبذلك تنفك عقدةآلامها. إنك محروس بعين العناية الإلهية، ومن زواجكما سوف تنتج جوهرة ثمينة!".

٥٣- زواج يوسف ﷺ من زليخا بأمر الله تعالى عز اسمه

وبعد أن تلقى الأمر من الله رب العالمين لكي يجمعه هو وزليخا زواج شرعي، أعد يوسف اجتماعاً ملكياً ودعا فيه الملك وذوي المقامات العلية في مصر. ثم حسب شريعة إبراهيم ويعقوب ﷺ، آخذاً بالاعتبار كل عادة شريفة وكل ممارسة طيبة، أتما زواجهما. وأمطر الناسُ العروسين بكثير من المال، وقدم لهما الملك وحرسه تهانيهم الحارة.

وكما هي العادة في مثل هذه المناسبة، اعتذر يوسف أخيراً للضيوف المدعوين والتفت إلى زليخا لكي يسألها سؤالاً ملأ قلبها بالسرور. وهنا عندما ودعهم الضيوف، اتجهت إلى غرفة العرس مع وصيفاتها المتلهفات اللواتي تسارعن إلى خدمتها، حيث ساعدنها على ارتداء ثوب عرسها، حلة من القماش المقصب، وقد أخذهن العجب ما الذي أعاد لها جمالها الساحر؟

وأخيراً خفت أصوات الهرج والمرج، وانتهت وليمة العرس، وانصرف المدعوون إلى منازلهم. وتبرقعت زليخا كما تفعل العروس، وانتشر ضياء من القمر كأنه ستارة ذات حوافٍ مذهبة على الأرض، والتمعت النجوم في علوها من القبة الزرقاء. وعلى الأفق البعيد بدت الشمس في مغيبها

وتركت وراءها جواهر و لآلئ تلتمع في الأفق. وأخيراً بدت غدائر الليل السود كستارة تخفي وراءها أسرار العالم، وأباحت بذلك لسكانها أن يجروا وراء أسرارهم ويطاردوها.

وكذلك العشاق أسدلوا الستائر على أنفسهم وهم في خلوتهم متوحدون، لكي تحميهم تلك الستائر من الأعين الحاسدة النهمة.

كانت زليخا جالسة وراء ستارتها تنتظر بفارغ الصبر، وبقلب خافق تنهدت قائلة:

"أخيراً، بعد ظمأ طويل، أستطيع أن أتذوق طعم الماء على شفتي. يارب، آأنا في حلم؟".

كانت عيناها تتدفقان بدموع الفرح تارة، وتارة أخرى ينزف قلبها خوفاً من خيبة الأمل.

"إنني لا أكاد أصدق بأن حظوظي ستنقلب إلى الأحسن، ومع ذلك إن فضل الله عام على الجميع، ومن الخطأ أن نيأس من رحمته ﴿ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾".

وهكذا كانت تتجاذبها إلى هنا وهناك نوبات من الفرح واليأس، عندما رأت فجأة الستارة تفتح من جانبها، وتكشف عن بدر سافر يملأ الغرفة بهاءً وجمالاً. ولم تستطع إزاء ذلك أن تبعد بصرها عن وجه يوسف، لقد نقلها منظر جماله المشع إلى نشوة عارمة وتأثر يوسف بإغماءتها وهيامها، فرفعها بحنان إلى السرير الذهبي، حيث وسد رأسها في حضنه. وهنا أعادتها إلى رشدها بلطف رائحته الزكية، والآن إنه يوسف ينظر أخيراً إلى ذلك الوجه الذي حتى هذه اللحظة كان يخجل منه ويجفل على الدوام. لقد رأى في ذلك السيماء الجمال الغني عن الزينة، وفتنة مماثلة للحورية، وحينما استمتعت عيناه حتى ارتاح قلبه جذبها إليه في عناق شديد. يوسف ذلك الضيف المكرم المحظوظ على مائدة العشق، وجد في شفتي زليخا مذاقاً يثير شهيته.

هكذا قبلهما باستمتاع حتى غدت رغبته الجياشة أشد من ذي قبل. ثم عانقها وتحسس ما تحت خصرها حيث وجد علامات على كنز لم تمسه يد ولم يكتشف أبداً.

وبجوهرة لامعة كمفتاح، فك عقد ذلك المكان وأدخل فيه الجوهرة و و[١٧] . . .

وبدت صورة ورديتن معاً تتفتحان على نسيم الصباح، الأولى شديدة الالتفاف والأخرى تتفتح، ويغرق البرعم بعيداً عن النظر في الوردة المتفتحة. وسأل يوسف زليخا كيف أن هذه اللؤلؤة لم تثقب بعد؟ ولماذا لم تتفتح أبداً على نسيم صباح؟ فقالت زليخا: " لأنه مع كون العزيز أول من نظر إلى حديقتي، إلا أنه لم يجمع منها أي برعم، مع أنه كان متلهفاً لذلك، شديد الطموح لهذا السيف، وكان عندما تحين اللحظة تخور قواه فلا يستطيع تحقيق رغبته. ومن جهتي، منذ كنت طفلة، عندما رأيتك في أحلامي، وعرفت مكانك، وأشفقتَ عليّ وائتمنتني على هذه الجوهرة لكي أحافظ عليها – حافظتُ عليها غيرةً عليها من أي أحد آخر. ولذا بقيت لم تُمَسّ. وأشكر ربي أنه رغم جميع المتاعب التي تحملتها، فقد كنت قادرة على أن أحافظ عليها سليمةً لكي تكون لك وحدك" !".

ولما سمع يوسف هذا الكلام ازداد حبه، فقال لها: "أخبريني، وأنت الآن أجمل من الحور العين، ألا تظنين أن هذا أفضل مما كنت تريدينه من قبل؟".

–نعم، بالتأكيد، سامحني. لقد كانت تلك وخزات الحب التي صغرتني إلى تلك الحالة. كان قلبي في قبضة عاطفة غير محدودة، وكانت نفسي تتعذب بمرض لا شفاء منه. إنك مخلوق فائق الجمال، وكل لحظة كان جمالك يجعل حواسي في اضطراب أكثر من ذي قبل. لذا أرجوك أن تسدل ستاراً

---

[١٧]) هنا أتوقف عن الوصف، حيث لم يتوقف جامي. وربما أراد بذلك أن يصف ما رآه حلالاً مقابل ما كانت تريده زليخا حراماً.

من الغفران على دناءتي السابقة. وكيف يمكن للحبيب أن يلوم محبه من أجل كلمات كانت نابعة من حب مطلق؟"

٥٤- تغلب محبة زليخا على يوسف عليه السلام

إن العاشق الصادق الذي يسلم نفسه لطريق العشق سوف يحوز في النهاية على اسم الحبيب. هذا العاشق المخلص هو زليخا التي ضحت بكل حياتها من البداية حتى النهاية في سبيل العشق. وحتى عندما كانت طفلة تلعب بالدمى كانت مغرمة حتى بهذه العرائس، وكانت اللعبة الوحيدة التي تحبها هي لعب الحب. وهكذا عندما وصلت إلى السن التي تعرف فيها الخير من الشر وتعلمت السلوك الحسن، كانت سعيدة الحظ بأن ترى يوسف. ولقد أبعدت عن قلبها حب الوطن وانطلقت إلى مصر- لا يجذبها فيه جاذبُ المكان أبداً، بل حضور يوسف فيه. وقد قضت حياتها كلها تفكر فيه، وعاشت على أمل أن تجتمع به وتتزوجه. وحتى في كبر سنها عندما سيطر العمى عليها ولم تستطع أن ترى وجهه، بقي هذا التفكير وهذا الأمل مستحوذَيْنِ على نفسها.

وأخيراً عندما ارتدّ إليها الشباب ونعمة البصر، تابعتْ عشق تلك الروح، روح العالم كله. وهكذا عاشت حياتها كلها في ولاء مطلق وحب صادق ليوسف.

مثل هذا العشق الذي لا حدود له انتقل في آخر الأمر إلى يوسف ذاته -وفي وسط هذا الحماس صار الدور هذه المرة لزليخا لكي تنعم بعناقه. إن هذه الساحرة ملكت قلب يوسف واستحوذت عليه، حتى لم يعد يحتمل أن يُمضي لحظة واحدة من دونها. كان شديد الحرص دؤوباً

على أن يسعدها وأن يحظى برضاها، واضعاً خده بجانب خدها، وشفتيه إلى شفتيها ليسقي حقل حبهما، وربما قصّر عن ذلك الري.

وعلى كل حال إليه يعود الفضل في أن الستارة التي كانت تحجب الرؤية الصحيحة عن عيني زليخا قد مُزقت تنفاً، وبرز شعاع من شمس الحقيقة كُشف لها على نحو مفاجئ، فصارت لامعة لمعاناً أخاذاً آسراً ضاع فيه يوسف مثل فراشة في شعاع الشمس. لأنه بعد فترة من العقبات التي ذابت في اختبار قاسٍ من الحب الأرضي، بزغت لها شمس الحقيقة، ولم يبق أمامها ولا حتى عائق واحد. لقد جذبها جاذب الحقيقة فتخلت عن كل شيء كانت تراه في السابق شيئاً أساسياً لا غنى لها عنه.

في إحدى الليالي، وبينما كانت تحاول أن تتهرب من محاولة إمساك يوسف بها أسرعت وهي تمشي باضطراب، وهي حالة من الحيرة. فإذا به يفوز بإمساك حافة ثوبها – وإذا به ينشق من الخلف. قالت زليخا:

"أرايت؟ كيف أني حاولت شق قميصك، والآن جاء دورك لتشق قميصي. إننا الآن شركاء في فعلة واحدة، فلن أحس بأي حرج أو بأي ضرر أو أذى بعد الآن. وعندما تنقلب الحالة إلى تشقيق القمصان، فنحن سواء على موطئ قدم واحد !"

ولما رأى يوسف ذلك التفاني الورع في زليخا، بنى جناحاً مذهباً باسمها – مصلى مصنوع من آجرّ أخضر فيروزي مزجج، كانت أرضه مزخرفة ببراعة مثل حديقة متنوعة النباتات، جدرانه مغطاة من أعلاها إلى أسفلها بصور كرسها الفنان بكل ما يملك من مهارة وبصيرة. وكان نور السعادة

يتدفق من نوافذها، وأبوابها مفتوحة لكل رسول يحمل بشارة خير. ونصب داخل المبنى عرشاً متألقاً مصنوعاً من الذهب والجواهر ومئات من المنحنيات الزخرفية والمقرنصات التي تجعل المرء يمسك أنفاسه من دهشة الصنع وبكل رفق وحنان أخذ يوسف بيد زليخا، وطلب إليها أن تجلس بجانبه وبعدها قال لها:

"إن جميع ما منحتني إياه من منن متنوعة كبرى سوف تجعلني شديد الخجل منك حتى يوم القيامة، فعندما كنت مغمورا، مجرد عبد بائس، كان عندك مبنى مثل هذا بُني باسمي، واليوم بنيت لك هذا المصلى، وبمقدورك أن تصلي فيه وتشكري المولى الكريم حق الشكر، الذي منّ عليك بكثير من النعم بعدد شعر رأسك. فهو الذي منحك غنى بعد فقر، وجمالاً بعد شيخوخة وعجز، ومنّ عليك بنور البصر بعد العمى. وهكذا فتح لك أبواب رحمته بعد أن أذاقك سموم البؤس والألم في حياتك كلها، وأنقذك بترياق اتحاد الزواج".

وأما زليخا فإنها وهي جالسة على عرش الملك، فقد عاشت في سعادة وهناء في معرفة حقيقة الحب من خلال حبها ليوسف، كرماً من الله عز وجلّ.

٥٥- رؤيا يوسف عليه السلام أبويه في المنام وطلبه الموت من الله تعالى واضطراب زليخا وبكاؤها

كم هو مشهد مؤلم أن ترى أحداً أوتي حظاً كبيراً من النعم، وبعد مروره بمحن كثيرة وصعوبات جمة حصل على نعمة الزواج ممن يحب، فصارت السيدة الجميلة والمال في قبضة يده، ونسي ما قاساه من قبل من آلام كثيرة وعاش حياة سعادة صرفة في النعم – وفجأة داهمته دوامة من الأخطار، كما

داهمه نذير الفراق الذي أتى غاضباً منصباً على حديقة الزواج فحطم شجرة الأمل ! إن زليخا الآن تعيش مع منى القلب، وفي حياتها المستقرة مع يوسف وجدت الراحة أخيراً وهدوء النفس، وعاشت حياة طويلة سعيدة خالية من أي هم دنيوي. وهذه النخلة الخصبة أنجبت ليوسف أولاداً، وحتى أحفاداً ولم يبق لها أمنية إلا وتحققت لها .

وفي إحدى الليالي، بينما كان يوسف متجهاً إلى القبلة يصلي إذا به يرى فيما يراه النائم أبويه محاطين بهالة من نور كالشمس، ونادياه قائلين:

"أيها الابن إن أيام البعد عنك قد استمرت أطول مما ينبغي، وعليك أن تسرع للقائنا، اخلع عنك رداء الطين، وخذ طريقك متدرجاً إلى مقام الروح والقلب".

وعندما استيقظ يوسف، إذا به يذهب باحثاً عن زليخا ليحدثها عن حلمه وشرح لها ما يمكن أن يؤوّل به. أما زليخا، فقد كان هذا بالنسبة لها إيقاظاً مزعجاً من أحلامها الجميلة، فطار قلبها فرقاً من فكرة فقدان يوسف.

وتغير تفكير يوسف، وصار تواقاً أكثر فأكثر إلى السفر إلى أقاليم الأبدية. ووَدّ صادقاً لو يترك هذا المكان المكتظ بالطمع والشهوات.

٥٦- وفاة يوسف عليه السلام

ولما سمع يوسف هذه الأخبار السارة امتلأ بغبطة كبيرة وفرح عظيم إلى درجة أنه نسي وجوده على الأرض. وعلى الفور تخلى عن كل ما يطمح إليه من نفوذ وسلطان، ثم نادى على أحد خلفائه ووارثيه، حتى يسلمه جميع ما يملك من سلطة عليا وأعطاه جميع التعليمات بكل تعقيداتها لكي يقوم

مقامه . ثم أمر بأن تأتي إليه زليخا حتى يكون قادراً على وداعها . فقيل له: "إن زليخا قد طغى عليها حزن شديد، وهي ملقاة على التراب تبلله دموعها وأنها لا تقدر على احتمال رؤيته رؤية الوداع. ومن الأفضل أن تُترك في هدوء مع نفسها " . فقال يوسف:

"إني لأخشى أن تكون هذه الحُرقة الشديدة سبباً في أن تتلف روحها فلا تشفى إلى يوم الدين" . فردوا عليه:

"نرجو المولى الكريم أن يهبها الهدوء، لأن القوة تكمن في الهدوء والتماسك!" .

وشهر الملاك جبريل عليه السلام ليوسف عليه السلام تفاحة قطفت حديثاً من جنات النعيم. وما إن شم يوسف رائحتها حتى أسلم الروح! وقد أثارته تلك الروائح السماوية التي انبعثت من تلك الثمرة، فعجل طريقه إلى جنة الخلد .

وعندما لفظ يوسف أنفاسه الأخيرة، صرخ جميع من حوله صيحات ألم وحزن حتى وصلت أصواتهم إلى أعالي القبة الزرقاء . وسألت زليخا عن هذه الضجة وسببها فقيل لها إن يوسف قد بدل تاج ملكه بتابوت الجنازة، وودع سكنه الأرضي من هذا العالم وصار الآن نزيلَ قصرٍ لا يحدّه زمان ولا مكان.

ولدى سماعها هذا النبأ وقعت على الأرض مغشياً عليها . ومرت ثلاثة أيام وهي متمددة كأنها ظل ساقط على الأرض. وفي اليوم الرابع ، صحت من إغمائها ولم تكد تدرك ما حصل ليوسف حتى أغمي عليها مرة أخرى. وحصل لها ذلك ثلاث مرات على التوالي، الواحدة تلو الأخرى على مدى ثلاثة أيام. وحين عادت إلى وعيها بعد ذلك، وسألت عن يوسف لم تجد شيئاً . لا جثمان يوسف ولا نعشه.

وكل ما قيل لها إنه دُفن ككنز ثمين تحت الثرى. ولدى إحساسها بقسوة الموقف مزقت جيبها، وكأنها بذلك تطلق المجال للنيران الملتهبة في قلبها لتخرج من صدرها . ولكنها بهذا الفعل هيجت النيران عندها أكثر فأكثر. وإذا بها تنشب أظفارها في خدها الياسميني الجميل لتفتح أخاديد لدموعها التي كانت دماءً. وصارت توالي ضرب صدرها ولطم وجهها . ثم نفشت شعرها وصارت تصرخ مناديةً على يوسف دون انقطاع:

"أين يوسف؟ أين درة التاج؟ من يمد بعدك يد العون إلى المحتاجين؟ لقد عزم على الرحيل إلى دار الخلود، وفارقنا على نحو مفاجئ، دون أن يتاح لي الوقت حتى لأقبل أعتاب ركابه. لقد ترك هذا القصر، قصر الآلام والأوجاع التي ما تنفكّ تزداد على الدوام. ولم أكن موجودة لكي أراه وهو يغادر . لكي ألقي نظرة على رأسه المرتاح على الوسادة، وأقبل خديه اللذين أصابهما الشحوب. وعندما جاءته تلك الصفعة القاسية لم أكن بجانبه لكي أضمه إلى صدري، أو أبكي عليه، أو أطلق تأوهات من قلب كسير ترافق نعشه وعندما فتحوا حفرة قبره للراحة الأخيرة، وواروا الثرى تلك اللؤلؤة الطاهرة، لم أكن هناك مع المحبوب في عناق أبدي! ما أفجعها من خسارة! وكم هو مصاب لا يحتمل! آه أيها المعشوق! انظر إلى آمالي المحطمة، وشاهدْ الألم الذي صبه القدر القاسي علي، لقد تركتني دون أن تبسم لي تلك البسمة الساحرة. لقد كنت مخلصاً على الدوام وأي إخلاص ؟ أكان إخلاصاً ما يقوم به المحبون أمام ا عرفت منه؟ لقد رميتني خارج قلبك وتركتني ملقاة على الأرض مضرجة بدماء الألم، وطعنت قلبي بشوكة لم أستطع اقتلاعها حتى الآن . إلا وقد تحولت إلى سهم كبير آلم طينة جسدي. لقد انطلقت في

رحلة إلى مكان لم يعد منه أحد أبداً ولا شيء أستطيع فعله إلا أن أنشر جناحيّ وأطير لاحقة بك إلى حيث تكون!

وبعد أن قالت ذلك طلبت محفة وامتطتها ذاهبة على الفور إلى قبر يوسف. ولكنها لم تجد علامة بها تستطيع أن تتعرف ذلك القبر ماعدا رابية صغيرة من لَبِن رطب.

وعلى تلك الرابية ألقت زليخا النبيلة بنفسها، بجسمها الناحل الذي غدا كالشبح، وبدأت تقبل المكان حيث وُسِّد ذلك الجسد العزيز للراحة الأبدية، وصارت تَندُب ضياعها من أعماق قلبها وتقول متنهدة:

"أنت يا من اختفيت هنا تحت جذور شجيرة ورد، بينما بقيتُ فوق الأرض مثل أغصانها المزهرة، إنك كنز دفين تحت الأرض، بينما أنا سحابة ممطرة تذرف لؤلؤاً، لقد تسربتَ كالماء إلى داخل التربة، بينما تركتُ على سطحها مثل الأشواك والعُصاف[١٨]. إن مجرد التفكير فيك يجعل الدم يتدفق في جسدي، وفقدانك يشعل النار في عُصافة وجودي، والدخان الذي ينطلق منها يتخذ سبيلاً لولبياً ينطلق عالياً إلى السماء الزرقاء جالباً الدموع إلى عين كل إنسان".

وهكذا كانت التأوهات تنطلق مع كل نَفَس من صدرها المتقطع من الألم، وهي ملقاة على الأرض تتأوه وتتفجع وتتلوّى.

وأخيراً وحين وصل انهيارها إلى نهاية حدّه، اقتربت راكعة لتقبل التراب بكل ولاء، ثم وضعت أصابعها في عينيها واقتلعتهما خارج الجمجمة ورمت بهما على التراب! وقالت صارخة: "إن أفضل

---

[١٨]) العُصافة: القش والتبن.

مكان لبصيلات النرجس هاتين هو في هذا التراب! فما نفع العينين لي في حديقةٍ فُجعت باختفاء مظهر وجهك؟

وبعدها ضغطت بوجهها الدامي على التراب وقبلته بتواضع ضارع، وأسلمت الروح!

إنه لمحظوظ ذلك العاشق الذي لفظ آخر أنفاسه وهو يستنشق عبير الاتحاد بالحبيب عبر فتحتي أنفه!

دعاء الختام

إننا واقعون مفتونين بحبائل تنّين السماء الحاقد! وكيف لنا أن ننجو من ذيله الذي ما فتئ محاولاً أن يسحقنا به؟ إنك لن تجد شخصاً واحداً نجا من هذا الطاغية القاسي فلم يصبه بجرح ولم يرحم ولا حتّى واحداً من الألف من الناس أو يشفق عليه.

في الوقت الذي تجد فيه نفسك متعلقاً بأحد، فاعلم أن الفراق سيكون حصيلة هذا التعلق الذي لا يقاوم.

إن الفلك يدور باستمرار-بشموسه وأقماره ونجومه التي تصب أنوارها على الدوام- لذا فإن هذه العناصر المتفاوتة قد تتحد وتنسج شباكاً لصيد طائر الروح وهذا الطائر لم يستطع أن ينقر ولا حبة واحدة من حبات الاطمئنان والسكينة. ثم تتحلل هذه العناصر وتعود إلى أصولها، بينما يترك هذا الطائر المسكين بعيداً عن عشه معذباً بالجوع والعطش .

أدر بصرك أيها الإنسان عما تحت هذه القبة الزرقاء، بأنوارها التي تعشو البصر، وأفعالها الوقحة المليئة بالأحقاد! فليس من امرئ افتُتن بها في الصباح إلاّ ويغتسل بالدماء منها مساءً، دماء بلون الشفق!!

وإذا حاول أحد أن يهرب من لهيب عذابها ولو للحظة فإنه سوف يدفع الثمن ألماً وعذاباً بقية عمره.

ادخل حديقة الربيع . أو تمشّ على ضفة النهر . وقل لي لماذا تمزق ثوب البرعم . وقل لي لماذا تغضّنت تويجات زهرة (المكحلة الحدقية) ؟ ولماذا تُرى دموع الندى في عيون النرجس؟ ولِمَ حال لون البنفسج إلى أزرق الأرامل ورمي به خارج الحديقة؟ ولماذا ترتجف الأشجار بالأسى وسط النسيم؟ أو عندما يصل سمعها إلى أغنيات الطيور الحزينة التي تشق القلوب؟ إنك لتنظر إلى العالم متجملاً بالربيع، فهلا نظرت إليه في الخريف؟ وانتبهت إلى الدرس الذي تعطيه! تحسس برودة رياح الخريف، وانظر إلى الأوراق الصفراء المتناثرة. إن ذلك النسيم المشبع بالجليد يأتي من فراق الحبيب والعشير. وامتقاع لون الأوراق كان بسبب ألم الفراق الذي لابد أن يعقبه اجتماع. إن الحديقة الرائعة فقدت ألوانها البراقة، فلم يبق من يتحسر عليها سوى الغراب. انظر إلى السفرجل بثوبه المصفر، إن خده المصفر كالمصاب باليرقان قد غطي بالتراب، ولا شك أنه متوجع من شدة اليأس لعدم رؤية وجه الحبيب. والجليد غطى وجه البركة فمنع الهواء من أن ينسج على سطحها ما يشبه تجاعيد نسج الدروع .

الخريف والربيع، كل منهما أشد من الآخر حزناً، فكيف يستطيع أحد أن يعيش بأمان وسلام في مثل هذا المكان الموحش الكئيب؟ ليس من فرح هنا في هذا العالم. وإذا كان ثمة فرح فإنه لن يمنح لبني الإنسان. ولولا الفكر المملوء بكلمات التحبب للمعشوق فهل يكون نصيبه على هذه الأرض سوى الحسرة والإحباط؟

إذاً أفرغ قلبك من كل أمل بالسعادة! وخل عن فكرك كل علامة تشير إلى حرية مزعومة! ومع ذلك، حاول أن تسعد بالجروح والندوب التي أزعجتك، وحتى وأنت في رِبقة العبودية كن حراً ! فكل شيء يبدو لك مرغوباً ويأسر قلبك تمنيه، سوف يُنتزع منك بأسى مع آلاف الأحزان. إني أنصحك أن تجتهد

بقوة لكي تحطم الأغلال التي كبّلت قدميك، وتمزق جميع العلائق التي تربطك بأهداف غير مُجدية. وإذا لم تفعل، فإن الوجود الذي ربطك بهم محكوم عليه حسب قانون التوازن بأن يأخذهم منك حينما آمنت بالقدر.

لقد ضعفت قوة قبضتك، وزال مخزون قوتك من بين يديك. لقد قمت بكثير من المحاولات والمغامرات لكي تسترجع كل شيء، ولكن جهودك لم تفلح ولم توصلك إلى هدفك. إنك ستؤذي نفسك إذا ما حاولت استخدام قبضتك مرة أخرى لأنها فقدت قوتها. تلفت حولك فلا تجد سوى الفشل تلو الفشل. ومع ذلك تصر على التسبب بمزيد من الأضرار لنفسك حيثما تتجه. وبعد أن أيقنت بضياع قوة جسمك وروحك التي أبقتك إلى هذا الحد، هل بقي لديك أدنى شك في تصرف هذه الحياة الدنيا ودأبها على الخيبة؟ ألم تضع في اعتبارك أنها قد استردت منك حتى وجودك الذي مُنحتَه بالدرجة الأولى؟

لقد ضيّقتَ العالم على نفسك، وجعلته هدفك الرئيس. إنك غافل عن وجود العالم الآخر، والذي منه ظهر كل شيء، صغيرا كان أم كبيراً. إني أخشى أنه في لحظة موتك لن تكون قادراً على أن تنتزع قلبك من هذا العالم الحاضر الذي ستغادره بقلب مليئ بالضلالات الغارّة، حينما يكون رأسك قد تدلى خزياً وعاراً، وحينما يأتي ملك الموت ليصب في حلقك جرعة من كأس الموت، وأنت تتحرق شوقاً على هذه الكومة من الخرائب المهجورة، فافتح طريقاً تؤدي إلى ذلك القصر الرائع. وبذلك تستطيع من الآن أن تتفكّر وتبتهج بالغد، ولا تدع فكرك يتابع التطلع ولو ببضع نظرات إلى هذه الحياة الدنيا. إنها مثل حذاء موجع يقرص القدم، ومن الأفضل رميه وإلا فإنه سيؤذيها. لا تسدل ستائر تحجب السماء عن عينيك! ولماذا تبقى حاجبة إياك ومانعتك من رؤية النور لحظة أخرى؟ إن خلف هذا الحجاب يلتمع نور غير

محدود ومجرد شعاع منه هو شمس السعادة. فدع عنك الأماني جميعها ودع نفسك تتوه في ذلك البهاء كفراشة وسط شعاع الشمس، ومثل هذا الضياع سوف يحررك في النهاية من حُرق آلام الفراق والخيبة !
أدعو لك المولى أن يحفظك، يا بني العزيز، ويمنحك نصيباً من نصيحتي النافعة والمناسبة. لقد آن أوان تفتح شبابك، أما أنا، فحالي في تراجع ولم يعد لدي مزيداً من البذور المثمرة لكي أبذرها . أما بالنسبة لك فما عليك إلا أن تعمل بجد مادامت لديك الأسباب. أرجو أن يكون عملك نافعاً وأن يجلب لك مطر رحمة من كرم الخالق ﷻ ! كما أدعو لك أن تختار طلب الحكمة، وتهرب عن مدينة الجهل. إن الجُهال كالأموات لا نفع فيهم، والحكماء هم الأحياء حقاً، فكيف يستطيع أحدٌ مطلبُهُ الحكمة أن يتناغم مع الموتى؟ وتذكّر أن المعرفة واسعة والحياة قصيرة، ولا تعود الحياة لأحد مرة ثانية، لذا ما عليك إلا أن تجدّ في طلب المعرفة الأساسية التي لا غنى عنها . وعندما تحصل عليها حاول جاهداً أن تطبّقها، لأن النظرية دون تطبيق سمّ من غير ترياق. وما نفع معرفتك للكيمياء إذا لم تستطع أن تقلب النحاس إلى ذهب خالص؟ وما دمت قد مُنحت شرف ارتداء ثوب العمر فزينه بالإخلاص، لأنه عمل مؤسف أن يستخف به رجال عقلاء حينما يجردونه من الإخلاص، فلا ينفع أحداً، مثل قطعة كعك خبزت نصف خبزة فلم تنضج بل تسببت في سوء الهضم. وبالإضافة إلى الإخلاص عليك أن تتحلى بالحكمة والتعقّل لتصونه، حتى لا يكون سبباً في نشوء مئات من الأخطار على الطريق.

تجنب الانغماس في الترف، ولا تضع لنفسك خزانة تخزن فيها الملابس الجميلة والطعام. إن الهدف الأوحد من اللباس هو أن يحفظنا من عناصر الطبيعة: الحرارة والبرودة والليونة واليبوسة ! إن الرجل الجدير بحمل (الاسم) في قلبه لا يحتاج إلى الملابس المبهرجة. والزيّ الخشن خشونة جلد القنفذ لهو مثل

القلعة الحامية من الخطر. أما إذا كان مثل فرو الثعلب، فإنك ما إن تتمتع بالفرو الناعم حتى تجد نفسك مطارداً من قبل الصيادين. لا تسرع وراء الحلوى، كالذبابة، إلا إذا أردت أن تغوص قدماك في العسل. كن قانعاً، كنجمة البحر، بالمياه المرة في المحيط الذي لا يرحم. إنك تستطيع أن تستخدم الثوب ليحفظك كما تحفظ الصدفة اللؤلؤة. وإذا دعاك أحد لكي تغمس أناملك في أطباق مائدته، فإياك أن تجعل من هذه الأصابع قبضة تشهرها بوجهه لتضربه، وإذا أخذت قليلاً من الملح لتملح به طعامك، فلا تلوث المملحة! افتح ذراعيك بسخاء لأصدقائك، ولا تحاول أن تمشي في ممر البخل الضيق، ولكن لا تحاول أن تُدين أو تستدين كثيراً إلى حد الغلو والكثرة، كما يقول المثل العربي "إن الديون مقصّ الصداقة" ساعد أصدقاءك وأتحفهم ببعض الهدايا لكي تخفف عنهم همومهم، فهذا أفضل لك من أن ترهقهم بالديون.

كن حاضراً لبذل حياتك لأصدقائك، ولكن كن أولاً متأكداً أنك قادر على تمييز الصديق من العدو. من الذي يستحق أن يحمل لقب صديق؟ إنه الرفيق السماوي الذي استنار قلبه بمعرفة الله، والذي يقف إلى جانبك عندما تسوء حالك. فإذا وقعت في مصيبة فإنه يأخذ بيدك برفق وبنصائحه الجيدة يصب الماء على النار التي تشتعل في داخلك وتستهلكك. وإذا دعاه الواجب أن يساعدك في أمر ما وأنت واقع في مأزق، فإنه ينتشلك منه، فتخرج سليماً خروج الشعرة من العجين.

فإذا وجدت مثل هذا الصديق، فالتصق به التصاق الغبار، وكن معه مثل الأسير المربوط إلى البردعة. وإذا فشلت في الحصول عليه فأدر وجهك إلى الجدار، وانأَ بنفسك عن الناس، وكن صديق نفسك في الكهف، وانسَ مصائب الزمان وآلام الحياة الأرضية. لا تخزن في نفسك الألوف المؤلفة من مزعجات

العالم، اهتم بالدرجة الأولى بالواحد الأحد، ووجه قلبك نحوه ليلاً ونهاراً. وعلى كل حال، إذا كانت مثل هذه السعادة بعيدة المتناول عنك، فعلى الأقل لا تقطع حياتك بالكسل المشين.

التفت عن هذا المعمل اللاهي إلى عالم الكتب. وحاول أن توسع أفق خيالك بقراءتها. وقد قال أكثر العقلاء حكمة :إن الحكمة في بطون الكتب، ولو كان الحكيم الذي كتبها تحت التراب. إن الكتاب أنيس الوحدة، والنور الساطع لفجر الحكمة، يفتح لك ألواناً من المعرفة على الدوام، إنه المستشار المفضل الذي يرتدي جلد الغزال[١٩] المليئ بالمعاني السامية والأمور المعقولة، ينصح صاحبه بصمت. إنه كمحفة جلدية مزخرفة وملونة صنعت في مراكش، تضم مئين من الجميلات المرتديات ثياباً زهرية اللون، وجوههن منقطات بالمسك، مستلقيات بجنان، وخدودهن متقاربة. وإذا وضع المرء أنمله على شفاههن، فإنهن يفتحن أفواههن وينشرن آلافاً من الدرر الظريفة ذات المعاني العميقة. وأحياناً يشرحن معاني القرآن الكريم، وأحياناً أخرى يبين معاني الحديث الشريف. وتراهن مرة أخرى مثل الهداة ذوي القلوب الطاهرة يوجهنك إلى نور الحقيقة، وأحياناً بلغات مبطنة بالاستعارة يلمحن إلى حكمة الإغريق، وآونة يتحدثن عن المستقبل وفي مرة أخرى يغرفن لك من بحور الشعر، ويسكبن بقوة خرائد اللآلئ في حضن فكرك. وعلى كل حال، عندما تصيخ السمع لهذه الإنجازات الفكرية الكبرى لا تنسى الهدف الأساس، ولو عجزت عن أن تشق طريقك إليه، فعلى الأقل لا تضيع وقتك في البحث عن شيء آخر.

وإذا فتحت فمك لكي تتكلم وتعبر عن أفكارك الخاصة، فكر بالدرجة الأولى بالخير ثم الشر الذي قد ينتج عن حديثك، فإن العصفور إذا طار من قفصه فمن الصعب أن ترده إليه. وإذا كنت مداهماً من

---

[١٩]) إشارة إلى غلاف الكتب المصنوع من الجلد.

الداخل بحجب المظاهر البراقة، فلا تحاول أن تشرح معارفك. فما نفعُ معرفتك الرقيقة المهذبة والمتنوعة إذا كان قلبك مازال يعيش في الظلام؟

لا تختلط بالصوفية الجهلاء! فإن الجهل لا يأتي إلا من الذين لم ينضجوا. إنهم لا يعرفون الطريقة الصحيحة التي تجعلهم ناضجين، وربما يقطفون الثمرة من حديقتك وهي لم تنضج بعد، وإذا قُطعت من أصلها فإنها ستبقى خضراء فجة حتى يوم القيامة. دع يدك وهي فارغة من الذهب والفضة، في يد الحكيم الذي ينشئ حكماء ضع بين يديه يدي المريد، وسوف تمتلئان بكنوز السعادة.

وإذا كنت تستطيع أن تنام في فراشك وحدك دون رفيق، مثل السيد المسيح، فلا تُسلم بكل كسل كنوز وحدتك هذه. إنه من الأفضل أن تقضي لياليك ساهراً من أن تكون بجانبك حورية. وإذا خشيت من تلك الرغبة الأنانية التي قد تقودك فجأة إلى طريق الخطيئة، فما عليك إلا أن تضع قدمك في أغلال الزواج، وبذلك لا تتحرك قدمك قيد أنملة عن ذلك القيد. وفي بحثك عن الزوجة المناسبة انظر أولاً إلى الفضيلة لا إلى الجمال. فإن امرأة يبدو عليها لمحة خجل وتواضع لا تحتاج بعدها إلى أي تجمل آخر. وأما علاقتك بالملوك فهي نار متأججة! اهرب منها كما يسرع الدخان الهارب من النار. وإذا احتجت إلى شيء من هذا اللهيب في حال من الأحوال، لكي توقد بها شعلتك، فاستعملها ولكن عن بُعد، لأنني أخشى أنك إذا اقتربت كثيراً أن تفقد ضوء حياتك. لا تقبل بالمناصب الرسمية التي تجعلك هدفاً للمكائد والطرد. امتنع عن ترف الأرائك لأنه من المؤكد أنه سيأتي شخص آخر ويخبرك بأن ترحل. إن الحياة الخاصة مع نفسك خير لك من أن تكون في الديوان!

طهر أفكارك من العُجُب، وكن مؤدباً مع كل من تقابل من الناس، وليكن تميزك وعلوك ظاهراً للعيان حينما يقارن بباطل المتعجرفين، مثل الرقم الذي بجانب الصفر يتمدد إلى عشرة أضعافه. لا تفعل فعل الحمقى، بأن تتقيد بأبيك، اترك أباك خلفك وكن نفسك ابن الجدارة. وما دام الدخان نفسه لا يخرج نوراً فما نفعه حين يكون مولوداً من النار؟

عندما تُسدى إليك نصيحة، اجعل لها مكاناً في نفسك. ولا تكن كالأحمق الذي يسمعها بأذن ويخرجها من الأذن الأخرى. إن الزمن يحتاج إلى بذرة لكي تبذرها أو إلى لؤلؤة لتصوغها. وكلمة واحدة كافية للعاقل. نحن جميعاً نعلم المثل الذي يقول: "حينما يكون أحدنا في بيته تكفيه كلمة واحدة". ولكن حينما يتضارب المحيط بالعواصف، فما نفع نقيق الضفدع الخالي من الذكاء والفطنة؟ في مقر الخداع الضال هذه الحياة الدنيا، من الأفضل لك أن تثق برحمة الله.

وأنت ياجامي، توقف عن فعل المبتدئين غير الناضج والتفت إلى ملاحقة الرجال ذوي المعرفة الناضجة. وما علامة النضج الكامل - أن تضع قدميك على أرض العدم. ألم تلاحظ أن الثمرة تبقى معلقة بالغصن لأنها تحتاج إلى النضج؟ وحينما تنضج الثمرة فإنها تسقط من نفسها - دون أن تحتاج إلى الأطفال المولعين بالأذى ليحصبوها بالحجارة!

سلّح نفسك بمُؤنٍ من فوائد أهل الخبرة، وانسحب بعيداً عن مجال عداوات غير الناضجين. اقتلع من نفسك جذور الطمع والرغبة من خلال إقناع نفسك بنصيبك من الدنيا مسلماً نفسك لإرادة الله ﷻ.

اجعل مأواك قلعة المسعى الرفيع، واجعل مكان عشك وكر العنقاء.

لا تتفوه بكلمة مدح لمن لا يستحقها، أو تتسامح في إهانتهم لك من أجل رغيف خبز! أدر قفاك هارباً عن الأقوياء في هذا العالم. تفكر في دورة الفصول - وكيف أن ربيع هذه السنة مماثل لربيع سابقتها، والخريف الماضي مماثل لخريف اليوم. إني لا أفهم كيف تستطيع أن تبتهج في مثل هذا الإجراء المتكرر، غير عابئ ما إذا كان سيشوبه شيء من الفرح، فمثل هذا التكرار نبع من الضجر للطبيعة الإنسانية! تجاوز خسائرك وفكر في منفعتك الخاصة بأن تلتفت من الوجود إلى العدم. اطرد من قلبك أشباح الهموم. وحينما تبذل ما في وسعك لتعلّم رقة الحب وحذقه ومكره الساحر في هذا العالم الزائل - فكأنما بذلك توقد مصباحاً للعميان!

كن حذراً من إطلاق أنفاسك في ثرثرة لا جدوى منها! لأن من الضروري لعابر السبيل أن يوفّر أنفاسه. فإطلاقها دون وعي لا يحسب على إطالة وجودنا الواعي، ولكن يطفئ مصباح الحياة ويملأ العقل بدخان الأسف.

لقد غادرك الشباب يا جامي، وأخذ معه لون السواد فأصبحت أيامك مضيئة مخبرة عن سنك المتقدمة، وذهبت أطياف الظلال القاتمة المعمية للأبصار، والاغتراب، ولم تتحقق لك رغبة واحدة في ذلك الظلام. وما عليك إلا أن تخطو إلى ذلك النور اللامع فربما يساعدك على شق طريقك نحو مكان تتنفس فيه عبق الإيمان. لقد غطى كبر السن رأسك حقاً بالثلج، والدموع التي كنت تذرفها من أسفك على الشيخوخة هي المياه التي ذابت من ذلك الثلج. ادخل في طريق التوبة، واغسل بهذه الدموع كل سواد موجود داخل قلبك، وإلّا من يدري إلى أين سيقودك هذا السواد؟؟

ارمِ بقلمك وأوراقك، لأن يدك ترتعش، وصار إجهاد فكرك عبثاً. إن مصباح فكرك قد خبا ضوؤه، ويبست حديقة شعرك. إني لا أرى في يدك شيئاً سوى مخلب غراب، فكيف تستطيع أن تستعمله لكي ترسم صنعة الطواويس الجميلة؟ وكيف لك أن تستخدمه لكي تجد لنفسك طريقاً خارج هذا السجن؟ إن خلاصك الوحيد يمكن في هجر هذه الضلالات الوقحة - أعني هذه السطور الموزونة والقوافي المنسوجة.

أين الشاعر نظامي الآن. وأين إبداعاته المنمقة من عبقريته الفذة؟ لقد صار وراء الستار، تاركاً كل ما كتبه هنا خارج الستار، والشيء الوحيد الذي يمكن له أن يستفيد منه هو السر الذي أخذه معه. لأنه السر الذي يعرفه هو، وذهب إلى ربه بقلب خال من كل ما هو بعيد عن الله. إذا لم يكن بداخلك مثل هذا القلب البطولي، فلم لا تنصرف عن نفسك الأمارة بالسوء في توبة نصوح وتضع نفسك بين يدي شيخ عالم من الذين خبروا الطريق البطولي. وقد عرف أحد الخبراء الكبار العلماء بأسرار خزانة المعرفة هذه الطريق بصورة كاملة حين قال:

الصيام هو أن توفر الخبز، وكل امرأة لازمها البؤس وصارت زينتها فقدان الانسجام مع الحياة تستطيع أن تصلي، مادام البؤس وعدم الملاءمة للحياة صارا جزءاً من زينتها. ولكن إذا كنت رجلاً حقاً وكفئاً لهذه الطريق، فعليك أن تضع قلبك على كفك، وهذا هو العمل الوحيد الذي يجعلك مستحقاً لحمل الاسم. كما يقول المرشد الخبير، أعني أن مثل هذا القلب الذي هو قلبي، أفرز لآلىء الأسرار التي وصفتها لك. لذا أنصحك أن تبحث عن مرشد كامل وتخضع نفسك له، وهذا معنى مقولة "حاملاً قلبك في يدك". إني لأشكر الله، على أنه بالرغم من جميع العوائق التي كانت في طريقي استطعت إتمام

هـذه الحكاية البهيجة، والآن وأنا أستند على جدار النهاية، أستطيع أن أرتاح بعد أن بذلت جهداً كبيراً.

إن الكتاب الذي تراه هنا قد كتب بقلم القصب- قصب الإخلاص- ويحمل اسمي الحبيب والمحبوب- الاسمين اللذيذ نطقهما على شفتي ، قصة يوسف وزليخا . والله يشهد أن عملي كان جديداً كالربيع، وكل مقطع منه كان حديقة عطرة بأزهارها الجميلة. وهناك تضافرت أشجار الأفكار بأغصانها، ووجدت تعبيراً أنيقاً في أناشيد الطيور وأغنياتها المرحة. وقد برزت حروفها مكتوبة باللون الأسود على ورق الكتابة الكافورية لكل صفحة، مثل الظلال التي تتلاعب تحت أقدام الأشجار. وكل كلمة تنبع من معانيها التي تندفع إلى الأمام وترتبط مع أخواتها لتشكل جدولاً من الظُرف. كم هو سعيد عابر السبيل ذلك الذي أتاح له قدره أن يجلس على ضفة جدولي هذا، ويحدق في مياهه الرائقة ليغسل الغبار عن قلبه المذهول! وبعد ذلك ربما يُجعل سر الإخلاص بادياً في روحه، وربما يمد يديه إلى ربه داعياً بدعاء خالص للمؤلف بأن تنتعش شفتاه الجافتان بقطرة ماء من المحيطات الزاخرة بالرحمة الإلهية، بعد أن يقطف هذه الورود المتفتحة حديثاً من صدره، أن لا ينسى البستاني الذي تعهدها بالري.

إن الناي الذي يتحرك جيئة وذهاباً، مثل النول، نسج هذا القماش الثمين وأتمه بسنة واحدة، والسنة التي تبعتها كانت تسع العقد التاسع من القرن التاسع الهجري (٨٨٩ هـ)[٢٠]

يا إلهي! عندما يضع أبطالُ طريق العشق أحمالَهم على عتبة العشق، أضع أنا جامي على عتبة القبول هذه العروس، منتظراً خلف ستار الأسرار، راجياً أن تكون مبرءة من أي عيب أو ملامة.

---

[٢٠]) يقابله عام ١٤٨٤م.

والآن يا جامي، وقد أنهيت كتابك بهذا الدعاء، ما عليك إلا أن تسأل الله المغفرة. لا ترتكب أفعالاً سوداء مرة أخرى، كما فعل قلمك! واغسل بدموعك كتاب حياتك! اسحب قلمك من فراغ الصحف الكئيب، وأغلق دفترك عن شغل الكتابة المشؤوم! مُرْ لسانك بأن يصمت! لأن الصمت يبقى أكبر قيمةً من أي شيء يمكن أن تقوله!

النهاية

المصادر

الجامي، عبد الرحمن. يوسف وزليخا(نسخة فارسية) . بومباي: مطبعة نادري، ١٩٢٣م.

العطار، فريد الدين. منطق الطير. تر. بديع محمد جمعة. بيروت: دار الأندلس،١٩٧٩م.

المراجع

بدوي، أمين عبد المجيد . القصة في الأدب الفارسي. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١ .

الحفني، د . عبد المنعم. الموسوعة الصوفية. القاهرة: دار الرشاد، ١٩٩٢ .

النابلسي، عبد الغني وآخرون. تعطير الأنام في تعبير المنام. القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٨٤هـ.

الخاني، عبد المجيد بن محمد . الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية. تحقيق عفة زكريا . دمشق: دار المنهل: ١٩٨٨ .

هلال محمد غنيمي. الأدب المقارن. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٧ .

– – – . الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٦ .

*

*

مترجمة الكتاب في سطور:

- من مواليد دمشق ومن أسرة معروفة بالثقافة والفن والأدب
- نالت درجة الليسانس في اللغة العربية وآدابها من جامعة دمشق عام ١٩٦٧
- عملت في التدريس ودرست الفنون الجميلة الرسم والموسيقى وأصول النقد الفني
- عملت مدرسة للغة العربية في الرياض مدة عشر سنوات
- نالت درجة البكالوريوس في الأدب الإنجليزي من جامعة الملك سعود عام ١٩٨١
- حصلت على درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي عام ١٩٩١-١٩٩٢
- شاركت في النقد الفني لبعض المعارض في عدد من المقالات
- نشرت عدداً من الكتب ما بين التحقيق والترجمة في دار المنهل بدمشق منها: الحدائق الوردية للشيخ عبد المجيد الخاني الدمشقي - الحصان الملجم ترجمة عن الإنجليزية للكاتبة الفارسية المعاصرة شوشا عصار - غابي - مجلس الطيور للشاعر الإنجليزي جفري تشوسر عن الإنجليزية الوسيطة - منطق الطير بين فريد لدين العطار وتشوسر، وهي ترجمة للرسالة التي نالت بها درجة الماجستير - ترجمة ليلى والمجنون للشاعر الفارسي نظامي الكنجوي عن الفارسية والإنجليزية

